المقدمة

توثيق النص القرآني ومراحله

من القول المعاد أن نتحدث عن توثيق النص القرآني إذْ هو أمر لا يختلف فيه اثنان ولا يعطي الحديث عنه جديداً يقال ، ولكن جرت العادة أن يبدأ الحديث عن القرآن والقراءات ببيان الجهد الكبير الذي قام به الرّسول عليه السّلام وصحبه لتوثيق هذا النص العظيم الذي انفرد من بين الكتب المقدسة التي سبقته بتوثيقه توثيقاً مكيناً وصل إلى الذروة ، وهذا هو سُر خلوده وأحدُ مفاتيح إعجازه .

والقرآن الكريم سجّل في مصحف ظلّ « ينقله أهل المشرق والمغرب من أمثالهم جيلاً جيلاً ، لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معاين للمشاهدة . . . . لا يشكّون ولا يختلفون في أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أتى به ، وأخبر أنّ الله عز وجلّ أوحى به إليه ، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك ، ثم أخذ عن أولئك حتى وصل إلينا »[1] .

وسنتناول في هذه النقطة مراحل التوثيق :

المرحلة الأولى
توثيقه في عهد الرسول عليه السلام

مرت هذه المرحلة في خطوات خمس :

١ ـ نزول القرآن منجّماً :

إن نزول القرآن الكريم منجّماً كان لأسباب عديدة ذكرها الرواة والمفسرون ، ولعل أهم هذه الأسباب يرجع إلى توثيق النص القرآني ، وإحكام حفظه، ذلك لأن نزوله مجزّأ أو مفرّقاً يساعد على حفظه ، وتثبيته في الصدور .

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٢ / ٨١ .

ومن المعروف أن القرآن نزل في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين على اختلاف في الأقوال ، وهي مدة طويلة تكفي لتثبيته من كثرة ترديده وتلاوته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزّلناه تنزيلاً ﴾ .[(١)]

وقد لمس هذا المعنى شهاب الدين القسطلانيّ فقال : « وفي إنزال القرآن الكريم مفرّقاً وجوه من الحكمة ، منها : تسهيل حفظه ، وتكرير لفظه ، لأنه لو نزل جملة واحدة على أمة أمّيّة لا يقرأ غالبهم ولا يكتب لشَقّ عليهم حفظه ، وثقل لفظه ، كما أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى بقوله ردًّا على الكفار : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك ﴾ (أي أنزلناه مفرّقاً) ﴿ لنثبت به فؤادك ﴾[(٢)]، أي لنقوّي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه ، لأن المتلقّن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء ، وجزءاً بعد جزء ، ولو ألقي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه »[(٣)].

٢ ـ كتابته حين النزول :

هذه هي الخطوة الثانية في التوثيق ، وكان النبي عليه السلام دقيقاً كل الدقة ، وحريصاً كل الحرص على كتابة القرآن فكان له كُتّاب وحْيٍ يتلقفون ما ينزل عليه فيكتبونه في وعي وإدراك، ودقة وإتقان على العُسُب والرّقاع وقطع الأديم ، وقد بذلوا أنفسهم ـ كما يقول ابن الجزري ـ « في إتقانه ، وتلقوه من النّبي ﷺ حرفاً حرفاً لم يهملوا منه حركة ولا سكوناً ، ولا إثباتاً ولا حذفاً ، ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم »[(٤)].

وقد تمثل حرص النبي عليه السلام على كتابة القرآن حين نزوله على هذا المستوى الكبير من الدقة والإتقان في منع كتابة شيء عنه سوى القرآن حتى لا يختلط به ما ليس منه ، يدل على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدريّ أن النبي عليه السلام قال : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه »[(٥)].

وقد جاء حديث النهي عن كتابة الأحاديث صريحاً فيما رواه أبو هريرة قال :

« خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نكتب الأحاديث ، فقال : ما هذا الذي تكتبون ؟ قلنا : أحاديث

---

(١) الإسراء ١٠٦ .
(٢) الفرقان ٣٢ .
(٣) لطائف الإشارات لفنون القراءات ٢٤ .
(٤) النشر ١ / ٦ .
(٥) تقييد العلم للخطيب البغدادي ٢٩ .

سمعناها منك ، قال : أكتاباً غير كتاب الله تريدون ؟ ما أضل الأُمَمَ من قبلكم إلاّ ما اكتتبوا من الكُتُب مع كتاب الله تعالى »[١].

من هذا الذي قدمنا نستطيع أن نقول : إن القرآن الكريم جرّد من كل شبهة حينما كتب على هذا النحو في هذا الجوّ النفسيّ من التجرّد له ، والإخلاص في صيانته من كل تحريف ، وتوقُّف أيدي الكاتبين عن كتابة أيّ شيء سواه ، منعاً لِلّبس ، وإزالة للشبهة .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذه النقطة من البحث هو : هل الصحابة الكاتبون أو بعبارة أخرى : هل كُتّاب الوحي جمعوا كل ما كتبوه في مصحف موّحد في هذه المرحلة ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول : إن الحاجة لم تكن ماسة إلى هذا المصحف الموحد لأن الصحابة كانوا يتلقون هذا القرآن من فم النبي عليه السلام فيتسابقون إلى حفظه ويتبارون في تلاوته ، والنبيّ عليه السلام بينهم يعرضون عليه ما حفظوا ، ويسمعون منه بيان أحكامه ، وكشف معانيه .

على أن السيوطي في الإتقان وضح السبب المباشر في عدم جمع القرآن في مصحف على عهد النبي عليه السلام بقوله : « قال الخطّابيّ : إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف لما كان يترقّبه من وُرود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة »[٢].

رأي ونقد :

يرى (أرثر جفري) في مقدمته لكتاب (المصاحف) أن « الرأي الشائع في أن القرآن الكريم كتب في عهد النبي عليه السلام لا يقبله المستشرقون لأنه يخالف ما جاء في أحاديث أخرى أنه قُبض ﷺ ولم يجمع في القرآن شيء »[٣].

ويميل (أرثر جفري) إلى هذا الرأي بل يؤيده حيث يقول : « وهذا يطابق ما روى من خوف عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق لما استحرّ القتل بقرّاء اليمامة » . . . إلى أن يقول : « وسبب الخوف هو قتل القُرّاء الذين كانوا قد حفظوا القرآن ، ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما »[٤].

وهذا الرأي الاستشراقي لا يستند إلى دليل وذلك لما يأتي :

١ ـ ما قيل من أن النبي عليه السلام قُبض ولم يجمع في القرآن شيء ، ليس المراد منه أنّ القرآن لم

---

(١) السابق ٣٣ .
(٢) الإتقان ١ / ٥٧ ، ومفتاح السعادة ٢ / ٣٩٢ .
(٣) مقدمة المصاحف لابن أبي داود / ٥ .
(٤) السابق بتصرف .

يكن مكتوباً حينذاك بل المراد أنه لم يجمع في مصحف، وقد ظهر لنا رأي الخطابي السابق في سبب عدم جمع القرآن في مصحف .

٢ ـ الروايات الموثّقة العديدة التي تثبت أن القرآن الكريم « كان مجموعاً على عهد الرسول ﷺ وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا »[١].

٣ ـ وأما خوف أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب حين استحرّ القتل بالقُراء يوم اليمامة فالاستدلال به غير موفق ، لأن خوف الشيخين الجليلين ناشىء من زيادة التحرّي ، والمبالغة في الحرص على القرآن وحفظه ، وذلك لأن طريقة أداء هذا المكتوب لا تتأتّى إلا عن طريق التّلقين والرواية ، ومن ثم نشأ خوف الخليفتين الجليلين من أن يموت القُرّاء فتتعثّر طريقة الأداء[٢].

وقبل أن ننهي الحديث عن هذه الخطوة نحب أن نبيّن أن هذا الرأي ليس رأي كل المستشرقين ، فإن الذين التزموا الحياد والموضوعية لا يجرون وراء الهوى ،ولا يحرّفون النصوص عن مواضعها ، ومن هؤلاء المنصفين (سير وليم موير) الذي نقل رأيه الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد) حيث يقول : « كان الوحي المقدس أساس أركان الإسلام ، فكانت تلاوة ما تيسّر منه جزءاً جوهرياً من الصلوات اليومية عامة أو خاصة ، وكان القيام بهذه التلاوة فرضاً وسُنة يُجزي من يؤديهما جزاء دينيًّا صالحاً . . . لذلك وعت القرآن ذاكرة كثرة المسلمين الأولين إن لم يكونوا جميعاً . وقد يسّرت عادات العرب هذا العمل ، فقد كانوا ذوي ولع بالشعر العظيم . . ولما كانت الوسائل لتحرير ما يفيض عن شعرائهم في غير متناول اليد ، فقد اعتادوا أن ينقشوا هذه القصائد كما كانوا ينقشون ما يتعلّق بأنسابهم وقبائلهم على صفحات قلوبهم ، وبذلك نمت ملكة الذاكرة غاية النمو . . .

« وقدبلغ بعض أصحاب النبي من قوة الذاكرة ودقتها ، ومن التعلق بحفظ القرآن واستذكاره حدًّا استطاعوا معه أن يعيدوا بدقة يقينية كل ما عرف منه إلى يوم كانوا يتلونه »[٣].

ونضيف إلى هذا الرأي المنصف رأياً آخر للمستشرق الأمريكي (ف . بودلي) حيث يقول عن القرآن الكريم : « فبين أيدينا كتاب معاصر فريد في أصالته وفي سلامته لم يشك في صحته كما أُنزل أي شك جدّي ، وهذا الكتاب هو القرآن ، وهو اليوم كما كان يوم كتب لأول مرة تحت إشراف محمد ، وعلى الرغم من أن الأفكار قد دونت في الرقاع وسعف النخل ، والعظام في لحظات غريبة فالسور والآيات الأصلية قد حفظت . . . وهذا الكتاب ليس مجموعة أحاديث أو تقارير يفترض فيها أن محمداً قد قالها فهي نفس الآيات التي أملاها بنفسه يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر خلال حياته . . . وإن الحسنة الوحيدة في طريقة (زيد) أنها كانت أُمينةً فوق الشبهات فلم يفعل شيئاً ليضيف فقرات ، أو يضع جُمَل ربط ، أو يحذف أو

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن / ٥ .

(٢) انظر القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للدكتور عبد العال سالم / ٥ .

(٣) حياة محمد / ٣٣ للدكتور محمد حسين هيكل .

ينسخ تفاصيل تشين الإسلام . لقد عمل بإخلاص لا يمكن تصوره » . . . إلى أن يقول : « والمهم هو أن القرآن هو العمل الوحيد الذي عاش أكثر من اثني عشر قرناً دون أن يُبَدَّل فيه ، ولا يوجد شيء يمكن أن يقارن بهذا أدنى مقارنة في الديانة اليهودية ولا في الديانة المسيحية »(١) .

٣ ـ أما الخطوة الثالثة في التوثيق فقد تمثلت في التنافس الكبير على حفظ القرآن ، وكثرة تلاوته . يدل على ذلك ما نقله الرواة أن الرسول ﷺ ، قال لعبد الله بن عمرو بن العاص « اقرأ القرآن في كذا ليلة . . . يدعوه إلى التيسير وهو يقول : إني أطيق أكثر من ذلك إلى أن قال له : اقرأ القرآن في ثلاث ليال »(٢) .

هذا وقد اشتهر جماعة من الصحابة بحفظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ وكتابته يوضح ذلك شمس الدين الذهبي في كتاب « معرفة القرّاء »(٣) فيقول : « وأمّا من جمعه منهم ولم يتّصل بنا فكثير »(٤) .

ويذكر الرواة أن أعلام القرآن في عهد الرسول عليه السلام الذين يؤخذ عنهم القرآن في عهد الرسول وما بعده قد حدّدهم الرسول عليه السلام فيما رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « سمعت النبي ﷺ يقول : خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبيّ بن كعب » .

ويفسر السيّوطي هذا الأخذ بالتعليم فيقول : « أي تعلموا منهم . ويحدد شخصيات هؤلاء الأربعة فيقول : اثنان من المهاجرين ، وهما المبدوء بهما ، واثنان من الأنصار . وسالم هو ابن معقل مولى أبى حذيفة ، ومعاذ هو ابن جبل » .

ويفسر الكرماني هذا الحديث بأنه « يحتمل أنه ﷺ أراد الإعلام بما يكون بعده أي أن هؤلاء الأربعة يبقون حتى ينفردوا بذلك » ، ولكن قول الكرماني لم يؤخذ على تعليله لأن هؤلاء الأعلام « لم ينفردوا ، بل الذين مهروا في تجويد القرآن بعد العصر النبوي أضعاف المذكورين ، وقد قتل سالم مولى أبي حذيفة في وقعة اليمامة ، ومات معاذ في خلافة عمر ، ومات أبيّ وابن مسعود في خلافة عثمان ، فالظاهر أنه أمر بالأخذ عنهم في الوقت الذي صدر فيه ذلك القول ، ولا يلزم من ذلك ألا يكون أحد في ذلك الوقت شاركهم في حفظ القرآن بل كان الذين يحفظون مثل الذين حفظوه وأزيد جماعة من الصحابة ، وفي الصحيح في غزوة بئر معونة أن الذين قتلوا بها من الصحابة كان يقال لهم القراء ، وكانوا سبعين رجلاً »(٥) .

ومما يدعو إلى الدهشة أن النساء شاركن الرجال في هذا الشرف العظيم شرف حفظ القرآن الكريم

---

(١) انظر : تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه لمحمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط / ٦٨ ، ٦٩ .
(٢) مقدمتان في علوم القرآن / ٢٧ .
(٣) هو كتاب طبقات القراء ، ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ١٥٣٧ ـ تاريخ (هامش البرهان ١ / ٢٤٢) .
(٤) البرهان ١ / ٢٤٢ .
(٥) انظر الإتقان ١ / ٧٠ .

وجمعه فقد روى السيوطي في الإتقان خبراً عنون له بـ (فائدة) ، قال : « ظفرت بامرأة من الصحابيات جَمعتْ القرآن لم يعدّها أحد ممن تكلم في ذلك ثم ذكر ما أخرجه ابن سعد في الطبقات: أن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث كان رسول الله ﷺ يزورها ويسميها الشهيدة ، وكانت قد جمعت القرآن »[١]

ولا شك أن هذه الخطوة كان لها دور كبير في توثيق النص القرآني حيث عاش الصحابة في رحابه دارسين وقارئين ، فأدّوه إلينا كما أُنزل مصوناً من كل تحريف، منزّهاً من كل تغيير ، فكانوا حفظته الأُوَل ، ورواده الميامين ولله در الإمام الشافعي حيث يقول في (رسالته): « وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن والتوراة والإنجيل ، وسبق لهم على لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الفضل ما ليس لأحد بعدهم ، فرحمهم الله ، وهنأهم بما أثابهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين ، أدّوا إلينا سنن رسول الله ﷺ ، وشاهدوه والوحي ينزل عليه ، فعلموا ما أراد رسول الله صلى الله عامًّا ، وخاصًّا ، وعزماً ، وإرشاداً »[٢] .

٤ ـ **وكانت الخطوة الرابعة في التوثيق** أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعرضون ما يحفظونه على رسول الله ﷺ ، ونذكر من هؤلاء الصحابة ابن مسعود الذي يقول : « قال لي رسول الله ﷺ : اقرأ عليَّ ، ففتحت سورة النساء ، فلما بلغت : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾[٣] رأيت عينيه تذرفان من الدمع ، فقال : حسبك الآن »[٤].

٥ ـ **والخطوة الأخيرة في التوثيق** هي أن جبريل كان يعارض النبي عليه السلام بالقرآن كل سنة في شهر رمضان ففي صحيح البخاري قال مسروق عن عائشة عن فاطمة رضي الله عنهما « أَسَرّ النبي ﷺ إليَّ: أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة ، وأنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضور أجلي »[٥].

من هذا العرض للتوثيق في هذه المرحلة نستطيع أن نقول : إن القرآن الكريم كما هو مكتوب في المصحف العثماني الذي بين أيدينا هو القرآن الكريم الذي نزل على رسول الله ﷺ في العرضة الأخيرة بترتيبه من غير تقديم أو تأخير، وبدون زيادة أو نقصان .

يدل على ذلك رأي الامام البغوي الذي سجله السّيوطي في الإتقان ، ونصه : « الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدّفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئاً خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته ، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله ﷺ من غير أن قدموا شيئاً أو أخّروا ، أو وضعوا

---

(١) السابق / ٧٢ .
(٢) النشر ١ / ١٢ .
(٣) النساء / ٤١ .
(٤) انظر غاية النهاية ١ / ٤٥٨ ، (وأبو علي الفارسي) / ١١ .
(٥) انظر في معارضة جبريل للنبي عليه السلام بالقرآن : البخاري في « فضائل القرآن » ، وانظر البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٣٢ .

ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يلقن أصحابه ، ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إيّاه على ذلك ، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا ، فثبت أن سعى الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه ، فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب»[١] .

المرحلة الثانية

توثيقه في عهد أبي بكر

في عهد أبى بكر الصديق رضي الله عنه تمت المرحلة الثانية من مراحل توثيق النص القرآني . وقد تبين لنا فيما سبق أن حفظ القرآن وكتابته كانا يسيران جنباً إلى جنب ليلتقي المكتوب بالمحفوظ ، فكلاهما توثيق للآخر .

ومن المعلوم أن الحفظة من الصحابة كانوا كثرة ، وأن كُتّاب الوحي بلغوا «تسعة وعشرين كاتباً أشهرهم الخلفاء الخمسة الأوائل ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، وأبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت»[٢] .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : هل كتب القرآن الكريم كله في عهد الرسول عليه السلام في مصحف واحد كما تقول بعض الروايات ؟

وللإجابة عن هذا السؤال نقول : هناك روايات تنص على أنه قد جمع القرآن في عهد الرسول عليه السلام مجموعات من الصحابة ذكر السيوطي بعضها فقال : «جمع القرآن خمسة من الأنصار : معاذ بن جبل ،وعبادة بن الصّامت ، وأبيّ بن كعب ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب الأنصاري» .

ورواية أخرى تقول : «جمع القرآن في عهد النبي ﷺ ستة : أُبيّ ، وزيد ، ومعاذ ، وأبو الدرداء ، وسعيد بن عبادة ، وأبو زيد»[٣] .

وفي رأينا أَنّ هذه الروايات لا يقصد منها جمع آيات القرآن الكريم كلها بين دفتي مصحف واحد ، وإنما المقصود منها أنّ جمع ما نزل من القرآن الكريم حفظاً في الصدور ، وتثبيتاً في الذاكرة ، وكتابته على الأوراق أو الخشب أو قطع الجلد أو صفائح الحجارة كان من عمل هذا المجموعات ، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا : إن الكتابة القرآنية بدأت في وقت مبكر جدًا لتواكب نزول القرآن الكريم في مكة على مستوى الأفراد

---

(١) الإتقان ١ / ٦١ .

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبدالله دراز ٣٤ .

(٣) اختلف في اسم أبي زيد هذا في أكثر من رواية في الإتقان ١ / ٧٢ ، وانظر هذين النّصين في الإتقان ١ / ٧٢ .

فضلاً عن مستوى المجموعات ، ولعلنا نذكر أن إسلام عمر رضي الله عنه كان بسبب جُذاذة سطّرت عليها آيات من سورة طه كانت تحملها أخته .

والذي يدعونا إلى هذا القول هو أنه لو كان القرآن مكتوباً بين دفتي مصحف واحد قبل أبى بكر لما كانت هناك حاجة إلى كتابته مرة ثانية في ضوء الظروف الصعبة التي كانت تحيط بالمسلمين في عهد أبى بكر : ظروف الردة ، والحروب ، وبناء الدولة .

وقبل أن نتناول الحديث عن توثيق النص القرآني في عهد أبى بكر ، هناك أمر يجب التنبيه إليه وهو أن القرآن الكريم ، وإن لم يكن مكتوباً كله عند فرد أو مجموعة فإنه كان « مكتوباً كله عند جميعهم ، وما ينقص من عند واحد يكمله ما عند الآخرين »[1].

أمّا توثيق النص القرآني في عهد أبى بكر فقد كان أمراً ضرورياً تدعو إليه أحداث الدولة إذ ذاك ؛ فهو كتابهم الأكبر ، وصيانته من كل تحريف ، وإحاطته بالتحرّي الكامل ، والدقة المتناهية يستوجب جمعه في مصحف واحد ، ليكون مرجعاً حينما يستبدّ النسيان بالذاكرة ، ومصدراً يفزعون إليه إذا حدث خلاف في قراءة ، أو جدل في آية .

يحدثنا في هذا الشأن زيد بن ثابت كاتب الوحي على عهد رسول الله ﷺ فيقول : « أرسل إليّ أبو بكر عقب مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، فقلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن ، اجمعه . فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن .

قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ، قال : هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن ، أجمعه من العُسُب[2] ، واللّخاف[3] ، وصدور الرجال »[4].

علام يدل حديث زيد ؟ إنه يضع تحت أيدينا بعض الحقائق في توثيق النص القرآني في هذه المرحلة :

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن : للشيخ محمد أبي زهرة / ٢٨ .
(٢) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل .
(٣) اللخاف : بكسر اللام جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء ، وهي الحجارة الدقاق ، انظر معنى الكلمتين في الإتقان ١ / ٥٨ ، ٥٩ .
(٤) الإتقان ١ : ٥٧ .

أولاً : الخشية من ضياع النص القرآني بعدم كتابته في مصحف واحد ، لأنه كان مفرّقاً حفظاً وكتابة بين الصحابة ، وبكثرة حروب الدولة إذ ذاك من أجل نشر كلمة الإسلام خشي عمر أن يفني حفظة القرآن وكُتّابه بسبب الحروب المتوالية، وبذلك يذهب كثير من القرآن ، فما زال يناقش أبا بكر الخليفة حتى اقتنع بوجهة نظره .

ثانياً : اختصاص زيد بهذا الجمع لم يجىء اعتباطاً بدون رويّة ، فزيدٌ كما ينص خبره الذي ساقه ، وصفه أبوبكر بصفات لها علاقة قوية بالتوثيق ، فهو شاب ، وفي الشباب قدرة على تحمل الأعباء ، وفيه كذلك ذاكرة قوية .

وليس الشباب وحده كافياً في هذا المجال الخطير ، فأضاف إليه أبو بكر صفة العقل الذي يحكم الأمور ، ويضعها في نصابها في روية وإتقان .

وبالإضافة إلى هذه الصفات فزيد بن ثابت غير مشكوك فيه ، منزّه عن الاتهام في دينه ، وهذه حيطة ليس بعدها حيطة من الخليفة أبي بكر في مجال توثيق النص القرآني ، وفضلاً عن ذلك فإن اختيار رسول الله ﷺ لزيد ليكون كاتباً من كُتّاب وحيه تتويج لهذه الصفات التي خلعها أبو بكر على زيد .

ثالثاً : إن ندب زيد للقيام بهذه المهمة كان من الممكن أن يؤثر في نفسه لأنه ولي القيام بعمل لم يحظ به كبار الصحابة ، وهذه ثغرة قد تنفذ منها دواعي الفخر ، والإعجاب ، ولكن زيداً الشاب العاقل تردّد في القيام بهذا العمل لأنه خطير ، ولولا إلحاح أبى بكر عليه ، ومراجعته إيّاه لما قبل أن يتحمل هذه المسؤولية التي صورها بهذا التعبير البليغ : « والله لو كلفوني بنقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ».

والذي دفعنا إلى هذا الاستنتاج هو التساؤل الذي يقتضيه الموقف : لم اختص زيد بهذا الشرف مع أن في مجتمع الصحابة من هو أكبر منه سنّاً ، وأعظم عِلْماً ، وأكثر ورعاً ؟

وقد طاف على أذهان المؤرخين المحدثين أمثال الدكتور هيكل وبعض المستشرقين هذا التساؤل ، فأجاب عنه الدكتور هيكل بقوله : « ولعل أبا بكر قد اختار زيداً وآثره على غيره من أصحاب رسول الله لأنه شاب فهو أقدر على العمل منهم ، وهو لشبابه أقل تعصّباً لرأيه واعتزازاً بعلمه ، وذلك يدعوه إلى الاستماع لكبار الصحابة من القرّاء والحفّاظ والتدقيق في الجمع دون إيثار لما حفظه هو ، وإن كان المتواتر أنه حضر العرضة الأخيرة للقرآن حين عرضه رسول الله ﷺ على جبريل للمرّة الثانية في السنة التي كانت فيها وفاته »[1] .

على أن الجاحظ أجاب عن هذا التساؤل إجابة حكيمة واعية ، قال : « رأوا أن قراءة زيد أحق بذلك ، إذ كانت آخر العرض ، ولأن الجمع الذين سمعوا آخر العرض أكثر ممن سمع أوله ، فحملوا الناس

(١) الصديق أبو بكر للدكتور محمد حسين هيكل ٣٢١ ـ الطبعة الأولى .

على قراءة زيد دون أبيّ وعبد الله ، وإن كان الكلّ حقًا ، إذ كان رُبَّ حق في بعض الزمان أقطع للقيل والقال ، وأجدر أن يميت الخلاف ، ويحسم الطمع فتركوا حقًّا إلى حق ، العمل به أحق ، ولو أن فقيهاً رأى إطباق العلماء على صوم يوم عرفة ، واستنكارهم الإفطار فيه ، فأفطر ، وأظهر ذلك ليعلمهم موضع الفريضة من النافلة ، أو خاف أن يلحق الفرض على تطاول الأيام ما ليس فيه كان مصيباً ، ولكان قد ترك حقًّا إلى أحق منه ، وللحق درجات »[١].

منهج زيد في جمع القرآن :

مما ينبغي ذكره في الحديث عن المنهج أن نقول : إن جمع زيد بن ثابت في هذه المرحلة لم يكن إلا إعادة لمكتوب كتب ، فمن الثابت المتواتر بالنصوص المنقولة والتي تقدم ذكربعضها: أن القرآن الكريم كان مكتوباً كله في عهد النبي عليه السلام ،ولكنه لم يكن مكتوباً في مصحف ، إذا فعمل زيد في هذه المرحلة لا يتعدّى البحث عن الرقاع والعُسُب ، والعظام التي كان القرآن مكتوباً عليها .

وكان منهج زيد في هذه الجمع يقوم على الخطط الآتية :

١ ـ « لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان »[٢] ومعنى ذلك أن زيداً كان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط ، وتحريًا في الدّقة مع أن زيداً كان من حُفّاظ القرآن الكريم .

وهذا التوجيه ـ كما يتحدّث الرواة ـ نابع من أبي بكر رضي الله عنه ، فقد « أخرج ابن أبي داود عن طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه »[٣].

٢ ـ التقاء المحفوظ بالمكتوب . وهذا الالتقاء له قيمته في التوثيق فلا قيمة لمكتوب من دون أن يتواتر سماعه ، ولا قيمة لمسموع ما لم يسجّل لأن القرآن كما قلنا كتب جميعه لم يسقط منه شيء في عهد الرسول عليه السلام ، ولحق بالرفيق الأعلى بعد أن تم التوثيق بشقَّيْه المحفوظ والمكتوب .

ولعل هذا ما عناه ابن حجر حينما قال : « المراد بالشاهدَيْن : الحفِظُ والكتاب[٤].

٣ ـ لا يكتفي بالمكتوب دون المحفوظ ، فقد يكون هناك خطأ في المكتوب لا يؤيده المحفوظ .

---

(١) مختارات فصول الجاحظ ـ مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٢٤٠٦٩ والاقتباس من تاريخ القرآن ١٠٧ للدكتور عبد الصبور شاهين .
(٢) الإتقان ١ / ٥٨ .
(٣) الإتقان ١ / ٥٨ .
(٤) الإتقان ١ / ٥٨ .

ولعل هذا ما يعنيه أبو شامة حينما قال : ألاّ يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرّد الحفظ »(١).

٤ ـ لا يكتفي بالمحفوظ دون المكتوب ، فإن المحفوظ وحده ، وإن تواتر غير كاف ما لم يكن مكتوباً .

ومن الأمثلة على ذلك رفض آية الرجم التي جاء بها عمر فلم تؤخذ لأن عمر كان وحده فسقط الركن الثاني من الشهادة ، حتى ولو كانت الآية مكتوبة عنده(٢).

وكذلك رُدّت رواية حفصة « والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر » فقد سألها عمر (أبوها) ألك بهذا بينة ؟ قالت : لا ، قال : فوالله لا ندخل في القرآن ما تشهد به امرأة بلا إقامة بينة »(٣).

ولا شك أن خطوط هذا المنهج خطوط علمية دقيقة لم يصل إلى دقتها منهج علمي حتى تاريخنا المعاصر ، ومن ثم كان الدكتور محمد حسين هيكل على حقّ حينما قال : « نستطيع أن نقول في غير تردد إنه : اتبع طريقة التحقيق العلمي المألوفة في عهدنا الحاضر ، وقد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة »(٤).

جمع زيد : صُحُف أو مُصْحف ؟

الروايات التي عرضناها فيما سبق تثبت أن الذي فعله زيد هو جمع القرآن الكريم في مصحف أي بين لوْحين أو دفّتين ، لكن هناك روايات تثبت أن الذي جمعه زيد هو الصحف لا المصحف ، وتستند هذه الروايات إلى ورود كلمة صحف على لسان عثمان رضي الله عنه ، فقد بعث إلى حفصة رضي الله عنها « أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك »(٥).

فبمقارنة هذه الرواية بالرواية الأخرى التي تبين أن أبا بكر « أول من جمع القرآن في مصحف »(٦) تظهر صعوبة التوفيق بين الروايتين . لأن بينهما تنافياً ظاهرياً لا يمكن معه القطع بأن ما جمعه أبو بكر كان صحفاً أو مصحفاً .

وقد لمس هذا التنافي بين الروايات مؤلف كتاب « المباني » فحاول التوفيق بين الروايتين ، وهو توفيق

---

(١) السابق .
(٢) السابق .
(٣) انظر فصل الخطاب ـ مطبوع موجود بدار الكتب للطبرسي حسين بن محمد تقي النوري ، ورقمه ٦٠٥ تفسير ـ تيمور ـ والنقل عن تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين ١٥٨ .
(٤) الصديق أبو بكر ـ الطبعة الأولى / ٣٢٢ .
(٥) الإتقان ١ / ٥٩ .
(٦) السابق .

تستريح إليه النفس ،وخلاصته :أنه لا تنافي في الحقيقة بين الروايات وذلك أنه « جمع القرآن وجعله أجزاء متفرقة أعشاراً أو أسباعاً وأقلّ وأكثر ، فسميت بذلك الأجزاء.............. صحفاً وصحيفة ، وكان له فيها غرض ، وذلك أنه أجدى وأحوط من جمعه في مصحف واحد . . .

ويحتمل أيضاً أنه جمع الصحف التي كانت في أيدي الناس مكتوباً فيها وحصلت عنده . ثم نسخ منها جامعاً بين لوحين ، وكانت الصحف محتفظاً بها عنده ثم عند عمر ثم عند حفصة ، وإنما حفظوها لأنها هي الأصل ، وقد كانت عرضت وعرف صحتها ، فلذلك اعتمد عثمان عليها »[١].

ومما يجب أن نشير إليه في هذا الموطن هو: أنّ عمل زيد هذا لم يكن عملاً انفراديًا أو أحاديًا كما يدعي بعض المغرضين ـ بل كان عملاً جماعيًا من صحابة رسول الله ﷺ ، وذلك أن زيداً أعلن خطته في الجمع للصحابة ليأتيه الحافظون والكاتبون بما عندهم ، وتعاونوا معه تعاوناً كان مضرب المثل في تاريخ التعاون العلمي ، وبعد أن كتب زيد هذا المصحف تلقاه الصحابة بقبول ، وتدارسوه ، وقرؤوه ، فكان من هذا المنطلق متواتراً بالكتابة كما كان متواتراً بالحفظ،وهكذا تمّ لكتاب الله تعالى في هذه المرحلة من التوثيق المتكامل الذي لا يحتاج إلى زيادة من مستزيد . ومن أجل هذا العمل الضخم الذي تم بفضل أبى بكر أشاد كبار الصحابة بأبى بكر الذي تمّ في عهده هذا العمل الرائع من توثيق النص ، وحفظ الكتاب .

وتكفينا في هذا المقام شهادة علي كرم الله وجهه فيما حدث به سفيان عن السّدى عن عبد خيْر قال : سمعت عليًا يقول : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أوّل من جمع بين اللوحين »[٢].

وعن هذا المصحف يتحدّث الدكتور محمد عبد الله دراز فيقول : « وفضلاً عن كماله المطلق يتميز أول مصحف رسمي عن النسخ الأخرى الكاملة أو الناقصة التي كانت عند الأفراد بمطابقته المطلقة للنّص المنزّل إذا استبعد منه كل ما يتضمّنه النص الأصلي طبقاً للعرضة الأخيرة ، فبينما ابن مسعود أو أبيّ بن كعب كانا في بعض الأحيان يكتبان من الذاكرة على مصحف كل منهما فيضيفان كلمة قد ترجع إلى تاريخ سابق أو قد يوضحان في الهامش أو بين السطور ـ وغالباً بلون مختلف ـ بعض التفسيرات أو بعض أدعية الصلاة الخارجية عن النّص ، فإن المصحف الرسمي يخلو حتى من أسماء السور »[٣].

الأحرف السبعة ومصحف أبي بكر :

لا نستطيع أن نتحدث في هذا الموضع عن حديث إنزال القرآن على سبعة أحرف فموضع ذلك لم

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ٦٤ .
(٢) المصاحف / ٥ .
(٣) مدخل إلى القرآن الكريم ٣٧ ، ٣٨ .

يأت بعد ، ولكن الذي نريد أن نثبته هنا أن مصحف أبي بكر لم يشتمل على هذه الأحرف السبعة ، وهذا منطقي لسببين :

السبب الأول :

أنّ كُتَّاب الوحي على عهد النبي عليه السلام لم يكتبوا القرآن بالحروف السبعة التي تمثّلها لهجات العرب أو بعضها ، لأنه نزل بلغة قريش وهي لغة الأدب والشعر ، فكان من مقتضيات التّحدّي لهذه اللغة الأدبية أن يكون تسجيل القرآن الكريم على أعلى مستوى، وأرفع درجة ، وأما الأحرف السبعة فهي في قراءة القرآن لافي كتابته .

السبب الثاني :

هو أن زيد بن ثابت كان من كُتّاب الوحي ، وهو الذي قام بكتابة النص القرآني في عهد أبي بكر ثم على عهد عثمان فيما بعد ـ فليس من المنطق أن نقول : إن مصحف أبي بكر « جُمع بالأحرف السبعة كلها ، وهذا يستلزم أن يكون حجم مصحف أبي بكر أضعاف حجم مصحف عثمان لأن هذا جمعه على حرف واحد من الأحرف السبعة »[١] .

وليس من المنطق أيضاً أن يُغيّر زيد بن ثابت منهجه في الكتابة فيكتبه مرة على حرف واحد ، ومرة على سبعة أحرف .

وقد بقي هذا المصحف عند عمر رضي الله عنه بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه . وقد تم في عهد عمر إرسال قراء إلى بلاد الشام ليعلّموا الناس القرآن بعد أن كثر المسلمون في هذه الديار ونموا ، وكان هذا الإرسال جانباً آخر من جوانب التوثيق لقراءة القرآن حتى لا تنحرف الألسنة عن صواب القراءة .

أما هؤلاء القراء فهم « معاذ ، وعبادة ، وأبو الدرداء ، فقال عمر : ابدؤا بـ(حِمْص) فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة ، منهم من يَلْقَنُ[٢]، فإذا رأيتم ذلك فوجّهوا إليه طائفة من الناس ، فإذا رضيتم منهم فليقم بها واحد ، وليخرج واحد إلى دمشق ، والآخر إلى فلسطين . وقدموا حمص فكانوا بها حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة ، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ومعاذ إلى فلسطين ، وأما معاذ فمات عام طاعون عَمْواس ، وأما عبادة فصار بعد إلى فلسطين فمات بها ، وأما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات »[٣] .

وفي هذه المرحلة كانت هناك ظاهرة تستوجب التوقف عندها لأن لها أثراً كبيراً في قراءات القرآن فيما بعد ، وهي ظاهرة تعدد المصاحف .

---

(١) انظر تاريخ القرآن لمحمد طاهر الكردي المكي / ٤٥ .

(٢) لَقِن الكلام : فهمه .

(٣) الطبقات الكبرى ٢ / ٣٥٧ ـ دار صادر ، ودار بيروت للطباعة .

تعدّد المصاحف :

لم يحاول أبو بكر رضي الله عنه أن يمنع المصاحف الفردية التي كانت منتشرة إذ ذاك بجانب المصحف الذي جمع بعد طول عناء ، وجهد منقطع النظير ، ولعل السبب في بقاء هذه المصاحف كما هي عند أصحابها دون أن تمس أو يحجر عليها فلا يقرأ منها ـ يرجع إلى أنه لم تحدث وقائع تدعو إلى توحيد المصاحف من ناحية ، ولأن القرآن نزل على سبعة أحرف للتيسير ، والترغيب في القراءة من ناحية أخرى .

ولهذا أباح أبو بكر تعدد هذه المصاحف بجانب مصحفه ، وأشهر هذه المصاحف :

١ ـ مصحف علي كرم الله وجهه :

فعن ابن سيرين قال : « قال عليّ : لما مات رسول الله ﷺ آليت ألاّ آخذ عليّ ردائي إلا لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن فجمعته »(١).

ومما لا شك فيه أن هذا يدل على أن عليًا كانت فكرة جمع المصحف مستقرة في ذهنه قبل أن يجمع أبو بكر مصحفه .

ولمصحف عليّ قيمة تاريخية إلى جانب أن عليًا كان من القراء فقراءته يمثلها مصحفه .

وقيمته التاريخية ترجع إلى أن قراءات أربعة قرّاء من القراء السبعة تنتهي إلى قراءة علي كرم الله وجهه ، أما هؤلاء القراء الأربعة فهم :

١ ـ **أبو عمرو بن العلاء** : قرأ على نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وكلاهما قرأ على أبي الأسود ، وأبو الأسود قرأ على عليّ رضي الله عنهما(٢).

٢ ـ **عاصم بن أبي النّجود** : قرأ على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السّلمى الضرير الذي قرأ على عليّ كرم الله وجهه(٣).

٣ ـ **حمزة الزيات** : قرأ على أبي عبد الله جعفر الصادق الذي قرأ على أبيه محمد الباقر ، وقرأ الباقر على أبيه زين العابدين ، وقرأ زين العابدين على أبيه سيد شباب أهل الجنة الحسين ، وقرأ الحسين على أبيه عليّ بن أبي طالب(٤) .

٤ ـ **الكسائي** : قرأ على حمزة وعليه اعتماده وتقدم سند حمزة(٥).

---

(١) الإتقان ١ / ٥٧ .
(٢) انظر النشر ١ / ١٣٣ .
(٣) السابق ١ / ١٥٥ .
(٤) السابق ١ / ١٦٥ .
(٥) المرجع نفسه ١ / ١٧٢ .

ومما يجب أن نلفت النظر إليه أن مصحف (عليّ) كرم الله وجهه لا يختلف عن مصحف عثمان رضي الله عنه المصحف الإمام اللهم إلا في القراءة التي يحتملها رسم المصحف العثماني ، فإن عليًّا كرم الله وجهه كتب مصحفه على حسب القراءة التي سمعها من الرسول عليه السلام ، وقد كتب مصحف أبي بكر على مرأى ومسمع منه ، فلو كان هناك خلاف في ترتيب أو تباين في زيادة أو نقص لما سكت عليّ ، ولأظهر رأيه في وضوح،لأنه لا يليق برجل مثله وهو من هو في الإسلام أن يسكت عن شيء لا يرتضيه في المصحف الذي هو دستور الأمة ، وعماد العقيدة . إنّ قراءة عليّ في مصحفه لا تخرج عن الرسم العثماني ، وما روى عن عليّ كرم الله وجهه من قراءات متّفقة مع الرسم واعتبرت شاذة فهذه القراءات لم تتواتر ولم يقو سندها .

وذلك كالقراءات الآتية :

أ ـ قرأ عليّ : « وعلى الثلاثة الذين خالفوا »(١) والعامة « خلفوا »(٢).

ب ـ وقرأ : « ثم ننحي الذين اتقوا »(٣) بحاء مهمله ، والعامة تقرأ « ننجي » بالجيم(٤).

جـ ـ وقرأ : « يا ويلنا مِنْ بعثنا »(٥) وقراءة العامة : « مَنْ بعثنا » بـ « من » الاستفهامية(٦).

د ـ وقرأ : « فمن خاف من موصٍ حَيْفاً »(٧) بالحاء والياء ، وقراءة العامة : « جنفاً » بالجيم والنون(٨).

هـ ـ وقرأ : لَنُثْوِيَنَّهم في الدنيا حسنة »(٩) وقراءة العامة : « لَنُبَوِّئَنهم »(١٠).

و ـ وقرأ : « آمرنا مترفيها »(١١) في وزن « عامرنا » وقراءة العامة : « أمرنا »(١٢).

ز ـ وقرأ : « لَنَحْرُقَنَّهُ »(١٣) وقراءة العامة : « لَنُحَرِّقَنَّهُ »(١٤) .

ح ـ وقرأ : « خُطُوءات الشيطان »(١٥) وقراءة العامة : « خُطُوات »(١٦).

فهذه جملة من القراءات المنسوبة إلى عليّ كرم الله وجهه وهي في مجموعها لا تخرج عن رسم

---

(١) التوبة / ١١٨ .
(٢) البحر ٥ / ١١٠ .
(٣) مريم / ٧٢ .
(٤) البحر ٦ / ٢١٠ .
(٥) يس / ٥٢ .
(٦) البحر ٧ / ٣٤١ .
(٧) البقرة / ١٨٢ .
(٨) البحر ٢ / ٢٤ .
(٩) النحل / ٤١ .
(١٠) المحتسب ٢ / ٩ .
(١١) الإسراء / ١٦ .
(١٢) المحتسب ٢ / ١٤ .
(١٣) طه / ٩٧ .
(١٤) المحتسب ٢ / ٥٨ .
(١٥) النور ٢١ .
(١٦) المحتسب ٢ / ١٠٥ .

المصحف ، ومع ذلك فهي موصوفة بالشذوذ لأنها لم تصل إلى قوة التواتر في الرواية[١] .

وإلى جانب هذه القراءات المتّفقة مع رسم المصحف ، هناك قراءات نص القراء على أنها قراءة عليّ وهي قراءات شاذة لم تتواتر من ناحية السند ، ولم تتوافق مع المصحف الإمام من ناحية الرسم وهذه نماذج من هذه القراءات الشاذة المختلفة مع رسم المصحف .

أ ـ قرأ عليّ : « يريدُ يَنْقَاصُ »[٢] وقراءة العامة : « يريد أن يَنْقَضَّ »[٣] .

ب ـ وقرأ : « حطب جهنم »[٤] وقراءة العامة : « حصب جهنم »[٥] .

جـ ـ وقرأ : « فَدَمِّرانِّهم تدميراً »[٦]. وقراءة العامة : « فَدَمَّرْناهم تَدْميراً »[٧] .

د ـ وقرأ : «فلما سَلَّما »[٨] . وقراءة العامة : فلما أسلما »[٩] .

هـ ـ وقرأ : « يا مالِ »[١٠]، وقراءة العامة : « يا مالك »[١١] .

و ـ وقرأ : « أو أَثَرَةٍ من علم »[١٢]، وقراءة العامة : « أو أَثارةٍ »[١٣] .

ز ـ وقرأ : « بوالديه حُسْناً »[١٤]، وقراءة العامة : « إحسانا »[١٥] .

فهذه القراءات ترجع إلى الروايات الأحادية التي لم تتواتر ، وإن كانت مروية عن النبي عليه السلام ، يدل على هذا الدّفاع الحار من جانب أبي حيان لقراءة « أفلم يتبيّن الذين آمنوا »[١٦] المنسوبة إلى عليّ كرم الله وجهه ، وقراءة العامة : « أفلم ييئس »[١٧].

وقد تكلف بعض اللغويين بأن هذه القراءة تتفق في معناها مع قراءة « أفلم ييئس » وعلى رأس هؤلاء ابن جنّى حيث ذكر في المحتسب أن هذه القراءة[١٨] فيها تفسير معنى قول الله تعالى : ﴿ أفلم ييئس ﴾ ، وروينا عن ابن عباس أنها لغة وَهْبيل فخذ من النّخع قال :

---

(١) لاحظ أن بعض القراءات التي قرأ بها القراء السبعة قد وصفت بالشذوذ كذلك للسبب نفسه .
(٢) الكهف / ٧٧ .
(٣) المحتسب ٢ / ٣١ .
(٤) الأنبياء / ٩٨ .
(٥) المحتسب ٢ / ٦٧ .
(٦) الفرقان / ٣٦ .
(٧) المحتسب ٢ / ١٢٢ .
(٨) الصافات / ١٠٣ .
(٩) المحتسب ٢ / ٢٢٢ .
(١٠) الزخرف / ٧٧ .
(١١) المحتسب ٢ / ٢٥٧ .
(١٢) الأحقاف / ٤ .
(١٣) المحتسب ٢ / ٢٦٤ .
(١٤) الأحقاف / ١٥ .
(١٥) المحتسب ٢ / ٢٦٥ .
(١٦) الرعد / ٣١ .
(١٧) البحر ٢ / ٣٩٣ .
(١٨) أي قراءة : أفلم يتبين .

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

وروينا لسُحيم بن وثيل :

أقول لأهل الشِّعب إذ ياسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زَهْدم

أي « ألم تعلموا »(١) .

ويتضح دفاع أبي حيّان عن هذه القراءة في أنه يبدي لها احتراماً كبيراً لا لأنها لغة من لغات هوازن ، أو لهجة من لهجات حيّ من النخع ، ولكن لأنها قراءة منسوبة إلى الرسول عليه السلام ، فهي من هذه الناحية قرآنية ، وليست تفسيرية يقول : « وهذه القراءة ليست قراءة تفسير لقوله : « أفلم ييئس » كما يدل عليه ظاهر كلام الزّمخشري ، بل هي قراءة مسندة إلى الرسول ﷺ وليست مخالفة للسواد إذ كتبوا « ييس » بغير صورة الهمزة . وهذه كقراءة « فتبينو »(٢) و « فتثبتوا » وكلتاهما في السبعة . وأما قول من قال : إنما كتبه الكاتب وهو ناعس ، فسوى أسنان السين فقول زنديق مُلحْدٍ »(٣) .

في ضوء هذه القراءات السابقة المنسوبة إلى الإمام علي كرم الله وجهه نقرر ما يلي :

١ ـ ليس مصحف عليّ الذي احتفظ به إلى عهد عثمان قبل أن يقوم الإمام عثمان رضي الله عنه بتوحيد المصحف الإمام ، وحرق جميع ما سواه ـ مخالفاً للمصحف الإمام إلا في القراءات التفسيرية أو الأحادية .

٢ ـ بعد توحيد المسلمين على مصحف واحد ، كانت هناك قراءات أحادية منسوبة إلى عليّ كرم الله وجهه ، وتناقل الرواة تناقلاً لم يصل إلى حد التواتر هذه القراءات ، التي سُجلت في كتب التفسير ، واللغة ، والقراءات .

٣ ـ وبعد مرحلة توثيق النص القرآني في عهد عثمان التي سنتحدث عنها فيما بعد ما كان لنا أن نعتد بقراءة في مجال التوثيق غير القراءات العامة المشهورة .

٤ ـ ما نسب إلى الإمام عليّ من قرآن مخالف لما في المصحف الذي بين أيدينا متجاوزاً مخالفة الرسم ، لا يعتدّ به في مجال القراءات الصحيحة أو الشاذة ، وإنما هو تفسير من كلام علي لا من كلام الله تعالى . وقد تنبه إلى هذه الحقيقة جماعة من أهل الإمامية ، فقد قالوا عن المصحف الإمام ، وهو مصحف عثمان الذي احتفظ به ليكون مرجَعاً لمصاحفه العثمانية الأخرى ، قالوا :

---

(١) المحتسب ١ / ٣٥١ وفي اللسان : « يسر » : « ييسرونني » مكان « ياسرونني » من « يسر » : إذا نحر ، ويسر القوم الجزور أي اجتزروها ، واقتسموا أعضاءها .

(٢) الحجرات ٦ .

(٣) البحر ٥ / ٣٩٣ .

« إنه لم ينتقص من كلمة ، ولا من آية ، ولا من سورة ، ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله ، وذلك كان ثابتاً منزّلاً ، وإن لم يكن من جملة كلام الله تعالى الذي هو من القرآن المعجز ، وقد يسمى تأويل القرآن قراناً ، قال الله تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه ، وقل رب زدني علماً ﴾[1]. فسمى تأويل القرآن قرآناً ، وهو ما ليس فيه بين أهل التفسير اختلاف »[2].

٥ ـ تثبت الآثار أن عليًّا كرم الله وجهه كان مؤيّداً لحركة عثمان في إحراق المصاحف ، وتوحيد المسلمين على مصحف واحد ، فقد رووا عنه قوله : يا معشر الناس : اتقوا الله عز وجل ، وإياكم والغلو في عثمان ، وقولكم حرّاق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن كلامنا أصحاب محمد ﷺ »[3] وبهذا القول سدّ الإمام عليّ كرم الله وجهه باب الفتنة حتى لا تمتد إلى المصحف الإمام يد العبث على مرّ الأزمان .

وقبل أن نترك الحديث عن مصحف عليّ كرم الله وجهه ـ نحب أن نبين أن جملة القراءات الشاذة التي نسبها ابن جني في المحتسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه بلغت ستين قراءة ، وشذوذها إما من جهة مخالفتها لرسم المصحف الإمام وإما من جهة أنها ضعيفة السند والرواية فلم تقو قوة القراءات السبع التي تواترت رواياتها ، ولم تخرج عن رسم المصحف الإمام في قراءتها .

وأما ما نسب إلى الإمام علي من قراءات ـ مصدرها أهل الشيعة مخالفة للمرسوم ففضلاً عن ضعف سندها ، فهي تفسيرات ، وتأويلات لا تعتبر قراءات شاذة أو غير شاذة ، وهي بعيدة عن النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد سجّلنا آنفاً رأى فريق من الشيعة وهم الإمامية حيث يعتبرون تفسيرات الإمام علي أو تأويلاته للقرآن من قبل القرآن تفسيراً ومجازاً ، لا واقعاً وحقيقة . وما نسب إلى الإمامية من اتهام كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان بأنهم حرفوا القرآن أو أسقطوا منه ، أو زادوا عليه ، فهو محض افتراء بعيد عن الحق ، دفع إليه هوى النفس ، ووسوسة الشيطان .

والواقع أن الإمامية لم يكونوا جميعاً على هذا الرأي ، فقد بينا فيما سبق أنهم مؤمنون بأن القرآن لم يحدث فيه تغيير أو تبديل أو زيادة أو نقص وما نسب إلى الإمام على من قرآن فهو تفسير معنى جاء بأسلوبه ومن نسج كلامه . أما الذين يدعون هذا التحريف فهم فريق من الإمامية يقولون : « إن كبار أهل السنة وأئمتهم كأبى بكر وعمر ، وعثمان حرّفوا القرآن ، وأسقطوا كثيراً من الآيات والسور التي نزلت في فضائل أهل البيت ، والأمر باتباعهم والنهي عن مخالفتهم ، وإيجاب محبتهم ، وأسماء أعدائهم ، والطعن فيهم ،

---

(١) طه / ١١٤ .
(٢) فصل الخطاب / ١١٠ وقد اقتبس من تاريخ القرآن للدكتور عبد الصابور شاهين / ١٧١ .
(٣) مقدمتان في علوم القرآن / ٤٦ .

واللعن عليهم ، فشق عليهم ذلك ، ونبض عرق الحسد منهم ، فتجاسروا على ذلك ، ومن جملة ما أسقطوه من سورة : (ألم نشرح): (وجعلنا عليًّا صهرك)، وهو يدل على تخصيص عليّ بكونه صهراً دون عثمان ومنها (سورة الولاية) ويزعمون أنها سورة طويلة قد ذكر فيها أهل البيت »[١].

ولا شك أن هذا الفريق الذي يدعي هذا الادعاء استبد به الهوى ، وأعماه التعصب وما أتى به مخالف لإجماع الأمة فهو قول ساقط ، وما يحتفظون به من قرآن أو قراءات غير موجود في المصحف العثماني ، كذلك غير مقبول ، والإمام علي كرم الله وجهه بريء مما نسب إليه ، فقد كان يعرف للقرآن الكريم قدره ، ويكفى أن ابن خالويه ، وهو معروف تاريخيًا بأنه شيعي قال عن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ـ حينما عرض لقراءة :

« وطلع منضود » مكان « وطلح منضود »[٢] وهي قراءة العامة قال : « قرأها علي بن أبي طالب على المنبر « وطلع منضود » فقيل له : « أفلا نغيره في المصحف ؟ » ، قال : ما ينبغي للقرآن أن يهاج ، أي لا يغير »[٣].

أليس في هذا دلالة واضحة على أن عليًا كرم الله وجهه ـ التزم برسم المصحف العثماني مع أن قراءته لا تنكرها اللغة ، ولا تأباها لهجات العرب ؟ ولكنها لما لم تتواتر بين الصحابة من ناحية ، ولمخالفتها لرسم المصحف من ناحية أخرى رفضها ، وأبى أن تثبت في المصحف ، ولعل ذلك أيام خلافته التي جاءت بعد خلافة عثمان وفي هذا ما يدل على الالتزام في رحاب القرآن .

ودليل آخر ذكره صاحب « المباني » حينما قال في معرض الرد على القراءة المنسوبة إلى عليّ رضي الله عنه : « والعصر ، ونوائب الدهر إن الانسان لفي خسر » قال صاحب المباني هذه الرواية باطلة بما روى عن يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عياش قال : قال لي عاصم بن أبي النجود : ما أقرأني أحد من الناس حرفاً إلا أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو عبد الرحمن قرأ على عليّ رضي الله عنه ، وكنت أرجع من عند أبي عبد الرحمن ، وأعرض على زر بن حبيش ، وزر قرأ على عبد الله بن مسعود . قال أبو بكر : فقلت لعاصم : لقد استوثقت فإنما روى أبو عبد الرحمن عن عليّ رضي الله عنه ، « والعصر إن الإنسان لفي خُسْر » بشهادة عاصم على أبي عبد الرحمن ، ورواية أبي عبد الرحمن تنسخ كل رواية في القراءة عن عليّ لموضع أبي عبد الرحمن من عليّ ، وضبطه عنه فهذه جهة تدحض رواية من روى عن عليّ ثم قال صاحب المباني : « إن من روى عنه « والعصر ونوائب الدهر فقد كذب أو نسي »[٥].

---

(١) مختصر التحفة ص ٣٠ ـ ٣٢ . وقد اقتبسه علي السالوسي في « فقه الشيعة الامامية » ١ / ٥٠ .

(٢) الواقعة ٢٩ .

(٣) مختصر البديع / ١٥١ نقلاً عن تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين / ١٦٥ .

(٥) مقدمتان في علوم القرآن / ١٠٣ .

٢ ـ مصحف أبيّ بن كعب

أبيّ بن كعب عرض القرآن على النبي عليه السلام ، وقد شهد له بالقراءة بل شهد له بأنه أفضل القراء ، فعن أبي قلابة « أن رسول الله ﷺ قال : أقرؤهم أبي بن كعب »[١].

وقد بلغت منزلة أبيّ في مجال قراءة القرآن أعظم درجة حينما قرأ عليه نبيّ الأمة رسول الله القرآن ، فعن قتادة عن أنس رضي الله عنه « أنّ النبي ﷺ قال لأبي : إني أمرت أن أقرأ عليك ! وفي لفظ : إني أقريك القرآن ! قال : آلله سمّاني لك ؟ قال نعم ، فبكى أبيّ »[٢].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ كان يقول : استقرئوا القرآن من أربعة : عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبيّ بن كعب رضي الله عنهم »[٣].

وقد أشاد بقراءة أبيّ إلى جانب إشادة الرسول عليه السلام به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعن ابن أبي مليكة : سمعت ابن عياش يقول : قال عمر رضي الله عنه : أقضانا عليّ ، وأقرؤنا أبيّ »[٤].

وفي عهد عمر كان أبيّ مرجعاً يحتكمون إليه عند الاشتباه في قراءة آية ، وهذا يدل على تمكنه من القرآن وقراءاته ، ففي البحر المحيط قال أبو حيان : « وعن عمر أنه كان يروي« والذين اتّبعوهم بإحسان »[٥] بغير واو صفة للأنصار حتى قال له زيد بن ثابت : إنها بالواو ، فقال عمر : ائتوني بأبيّ ، فقال : تصديق ذلك في كتاب الله في أول الجمعة : « وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم »[٦]، وأواسط الحشر : « والذين جاؤوا من بعدهم »[٧] وآخر الأنفال : « والذين آمنوا من بعد »[٨].

وروى أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو فقال : من اقرأك ؟ فقال : أبيّ فدعاه فقال : أقرأنيه رسول الله ﷺ ، ومن ثم قال عمر : لقد كنت أرانا وقعنا وقعة لا يبلغها أحد بعدنا »[٩] . ألا يدّل هذا النص في وضوح على أن (أبي) وصل منزلة في رحاب القرآن جعلته مرجعاً يلجئون إليه ، ويثقون به في حل مشكلاتهم .

وكان لأبي مصحف كما كان لعليّ ، وسنحاول الحديث عنه في إيجاز إتماماً للفائدة :

كان أبيّ من حفظة القرآن الكريم كما قلنا ، ومن أعلامه كما سجلنا ، ولا غرو في ذلك فقد كان من كتاب الوحي للرسول عليه السلام[١٠].

وأبيّ إلى جانب هذه الكتابة قد اشتهر بأنه جمع القرآن في عهد النبي عليه السلام[١١]وكان يكتبه في

---

(١) معرفة القراء الكبار ١ / ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) المرجع نفسه والصفحة .
(٣) المرجع نفسه والصفحة .
(٤) المرجع نفسه والصفحة .
(٥) التوبة ١٠٠ .
(٦) الجمعة ٣ .
(٧) الحشر ١٠ .
(٨) الأنفال ٧٥ .
(٩) البحر ٥ / ٩٢ .
(١٠) انظر توثيق القرآن في عهد أبي بكر من المقدمة .
(١١) انظر الإتقان ١ / ٧٢ .

صحف سميت فيما بعد مصحفاً بقراءته التي سمعها من النبي عليه السلام . وقراءة أبيّ من خلال مصحفه الذي جمعه قبل أن يحرق عثمان رضي الله عنه المصاحف ذات قيمة كبيرة في بحثنا هذا لأن ستة من أسانيد القراء السبعة متصل إسنادهم بأبيّ بن كعب ، وهؤلاء الستة هم :

١ ـ نافع :

وقرأ نافع كما يقول ابن الجزري على سبعين من التابعين ، منهم محمد بن مسلم بن شهاب الزّهري الذي قرأ على سعيد بن المسيّب ، وقرأ سعيد على ابن عباس وأبي هريرة ، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وابن عياش على أبيّ بن كعب[١].

٢ ـ ابن كثير :

قرأ على أبي السائب عبد الله بن السائب بن أبي السائب المخزومي ، وعلى درباس مولى ابن عباس ، وقرأ عبد الله بن السائب على أبيّ بن كعب[٢].

٣ ـ أبو عمرو بن العلاء :

قرأ أبو عمرو على أبي العالية ، وأبو العالية قرأ على أبيّ بن كعب[٣] .

٤ ـ عاصم بن أبي النجود :

وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السّلميّ الضرير وقرأ السلمي على أبيّ بن كعب[٤].

٥ ـ حمزة الزيات :

وقرأ حمزة على أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي ، وقرأ أبو إسحاق على أبي عبد الرحمن السلمي ، وتقدم سنده حيث قرأ على أبيّ بن كعب في سلسلة قراءة عاصم[٥].

---

(١) النشر ١ / ١١٢ .
(٢) النشر ١ / ١٢٠ .
(٣) النشر ١ / ١٣٣ .
(٤) النشر ١ / ١٥٥ .
(٥) انظر النشر ١ / ١٦٥ .

٦ - الكسائي :

وقرأ الكسائي على حمزة ، وعلى نافع ، وكلاهما قرأ على أبيّ ،[١] وكما قلنا في مصحف عليّ كرم الله وجهه: إنه لا يختلف عن المصحف الذي كتب في عهد أبي بكر ، نقول هنا : إن مصحف أبيّ لا يختلف كذلك، وذلك لسبب واضح جدًا وهو أن أبيًا اشترك في حركة توثيق المصحف في عهد أبي بكر ،[٢] وكان إليه المرجع حينما يحتدم الجدل أو يكثر النقاش في قراءة قرآنية كما بيّنا ذلك في رجوع عمر بن الخطاب إليه بشأن كتابة الواو في « والذين اتبعوهم بإحسان »[٣].

هذا فضلاً عن أنه من كتاب الوحي على عهد الرسول عليه السلام ، فليس من الإنصاف أن نقول : إن لأبيّ مصحفاً يختلف عن مصحف أبي بكر ، وإن كان هناك خلاف فمرجعه ترتيب السور لا اختلاف النص بالزيادة أو النقصان .

وقد وضح صاحب كتاب (المباني) السّر في ذلك فقال : « إن القراء كان الواحد منهم يقرأ سورة البقرة ، ثم يقرأ النساء أو الأعراف أو نحو ذلك من غير ولاء للسور بفروض توقف عليه ، وذلك أن الواحد منهم إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله ﷺ أو كتبها ، ثم خرج في سريّة فنزل في وقت تغيبه سور فإنه كان إذا رجع فأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ويتبع ما فاته على حسب ما يتسهل له فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير من هذا الوجه »[٤].

والحجة التي يستند إليها مؤلف المباني هي ما أخبر به يوسف بن ماهك حيث قال : « إني لعند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاء أعرابي فقال : يا أم المؤمنين ، أريني مصحفك ، قالت : لم ؟ قال : لعلي أؤلف القرآن عليه فإنّا نقرؤه غير مؤلف ، قالت : وما يضرك آيَهُ قرأت قبل ؟ إنما أنزل أول ما أنزل من القرآن سور المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا أثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر ، ولو نزل : لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنى ، وقد نزل على محمد ﷺ - وإني لجارية بمكة ألعب . . . « والساعة أدهى وأمر »[٥]. وما نزلت سورة البقرة إلا وأنا عنده ، قال : فأخرج المصحف ، فأمليت عليه السور »[٦].

قال مؤلف المباني معلّقاً : ألا ترى أنه اكتفى بإملاء السّور عليه إذ لم يكن ما عنده وما في مصحف عائشة خلاف إلا في توالي السور وقد قالت عائشة : وما يضرك أيّه قرأت قبل »[٧].

---

(١) النشر ١ / ١٧٢ .
(٢) انظر المصاحف ١ / ٩ وانظر ص ٧ من المقدمة .
(٣) التوبة ١٠٠ .
(٤) مقدمتان في علوم القرآن / ٣٢ .
(٥) القمر ٤٦ .
(٦) مقدمتان في علوم القرآن / ٣٣ ، ٣٤ .
(٧) المرجع نفسه والصفحة .

أما القراءات التي نسبت إلى أُبيّ فهي لا تخرج عن أمرين اثنين :

١ ـ ما تواتر من القراءات واحتمله الرسم العثماني فهذه القراءات السبع التي جمعها ابن مجاهد فيما بعد ، وقد قلنا : إن ستًّا من هذه القراءات متواترة السّند إلى أُبيّ رضي الله عنه .

٢ ـ ما انفرد به أُبيّ من القراءات بدون تواتر فإنه يعتبر قراءة شاذة .

ومعظم هذه القراءات مرجعه إلى القراءات التفسيرية ، وتدور حول ترادف الكلمات في قراءته مع كلمات القراءات المتفقة مع رسم المصحف العثماني وهذه نماذج منها :

١ ـ قرأ أُبيّ : « وغير الضالين » بدلاً من : « ولا الضالين »(١).

٢ ـ وقرأ : « كلما أضاء لهم مرُّوا فيه » وقراءة العامة : « مشوا فيه »(٢).

٣ ـ وقرأ : « لِلَّذين يُقْسمون من نسائهم » وقراءة العامة : « يُؤْلُون من نسائهم »(٣).

٤ ـ وقرأ : « فتذروها كالمسجونة »، وقراءة العامة : « كالمعلّقة »(٤).

٥ ـ وقرأ : « إذا طاف من الشيطان طائف تأملوا » وقراءة العامّة : « إذا مسّهم طائفٌ من الشّيطان تذكّروا »(٥).

٦ ـ وقرأ : ربّنا وابعث فيهم ـ في آخرهم ـ رسولاً »(٦) بزيادة في آخرهم ».

٧ ـ وقرأ : « إن الساعة آتية أكاد أُخفيها ـ من نفسي »(٧).

وهناك إلى جانب هذه القراءات قراءات أخرى متفقة مع الرسم ، ولكنها غير قوية في باب الرواية ، لأنها لم تبلغ حد التواتر ، ومن هذه القراءات ما يأتي :

١ ـ قرأ أُبيّ : « وقرآنا فرّقناه »(٨) بالتشديد ، وقراءة العامة : فرقناه بالتخفيف »

٢ ـ وقرأ : « فقبصْت قَبْصَة »(٩) « بالصاد » وقراءة العامة : فقبضت قبضة »(١٠) بالضاد .

٣ ـ وقرأ : « ولا تكلمون أنّه »(١١) بفتح الألف وقراءة العامة : « إنه » بكسرها(١٢) .

---

(١) الفاتحة / ٧ ، وانظر البحر ١ / ٢٩ .
(٢) البقرة / ٢٠ ، وانظر البحر ١ / ٩٠ .
(٣) البقرة / ٢٢٦ ، وانظر البحر ٢ / ١٨٠ .
(٤) النساء / ١٢٩ ، وانظر البحر ٣ / ٣٦٥ .
(٥) الأعراف / ٢٠١ ، وانظر البحر ٤ / ٤٥٠ .
(٦) البقرة / ١٢٩ ، وانظر البحر ١ / ٣٩٣ .
(٧) طه / ١٥ ، وانظر البحر ٦ / ٢٣٣ .
(٨) الإسراء / ١٠٦ ، وانظر المحتسب ٢ / ٢٣
(٩) طه ٩٦ .
(١٠) المحتسب ٢ / ٥٥ .
(١١) المؤمنون ١٠٨ .
(١٢) المحتسب ٢ / ٩٨ .

٤ ـ وقرأ : « أنْ وهبت نفسها للنبي »[١] وقراءة العامة : « إنْ بكسر الهمزة » .

٥ ـ وقرأ : « صادِ »[٢] بكسر الدال ، وقراءة العامة : (صَ) بسكونها .

هذا وقد بلغت القراءات الشاذة المنسوبة إلى أبيّ رضي الله عنه في ضوء المحتسب لابن جني ثمانياً وأربعين قراءة[٣]. وهي قراءات قليلة محدودة بالنسبة لقراءات القرآن المتواترة الموافقة لرسم المصحف .

شبهات حول مصحف أبيّ :

هناك قراءات منسوبة إلى أبيّ رضي الله عنه تحتاج إلى نقاش ، لأنها لا تتفق مع هذا العمل الضخم الذي تحدّثنا عنه فيما سبق بالنسبة لتوثيق النص القرآني في عهد أبي بكر ، رضي الله عنه ، وهي قراءات تشبه الروايات الإخبارية التي تحتاج إلى سند قائم على منهج إخباري صحيح لِتَقَبُّل هذه الروايات .

من هذه الروايات :

١ ـ قراءة أبيّ : « والسابقون بالإيمان بالنبي فهم عليّ وذريّته الذين اصطفاهم الله من أصحابه ، وجعلهم الموالي على غيرهم أولئك هم الفائزون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »[٤].

إن نسيج هذه الرواية يعلن أنها موضوعة لاضطراب أسلوبها ، وتكلف كلماتها ، وضعف بنيانها ، هذه ناحية ، وناحية أخرى إن التعصب لعليّ من قبل بعض الفرق الشيعية هو الذي دعا إلى اختلاق هذه القراءة ، ونسبتها إلى عليّ ، وعليّ كرم الله وجهه منها براء ، لأنها لو كانت قرآنية لاشتمل عليها مصحفه ، وانتشر ذكرها بين الصحابة ، وحيث إنها لم تكن كذلك ، وليست في مصحفه ولم ينتشر ذكرها بين الصحابة فهي قراءة كاذبة ، ونسبتها إلى مصحف أبيّ أكثر كذباً .

٢ ـ قراءة أخرى في مصحف ابن عباس منسوبة إلى أبيّ :

فقد ذكر السيوطي في (الإتقان) « عن عبد الله بن عبد الرحمن عن أبيه قال : في مصحف ابن عباس قراءة أبيّ وأبي موسى : بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم إنا نستعينك ، ونستغفرك ، ونثني عليك الخير ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك .

وفيه : اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نخشى عذابك ونرجو رحمتك ، إن عذابك بالكفار ملحق »[٥].

---

(١) الأحزاب ٥٠ . وانظر : المحتسب ٢ / ١٨٢ .
(٢) صَ ١ . وانظر : المحتسب ٢ / ٢٣٠ .
(٣) انظر فهرس المحتسب ٢ / ٧٧٧ ، ٤٧٨ .
(٤) المصاحف / ٩٧ .
(٥) الإتقان ١ / ٦٥ .

إن انفراد أبيّ بهذه القراءة يدل على أنها ليست من المصحف ، لأن كتابة المصحف في عهد أبي بكر كانت في غاية من الدقة والالتزام بحيث لا تقبل قراءة إلا بشهادة شاهدين ، ومن ثَمّ فإن قراءة أبيّ قراءة فردية ، ولو كان معه أحد في هذه القراءة لأسرع إلى تسجيلها في مصحف أبي بكر بناءً على المنهج الموضوع في قبول القراءة ، وقد عرفنا فيما سبق ردّ قراءة عمر في آية الرجم ، وقراءة حفصة في زيادة « والصلاة الوسطى ، وهي صلاة العصر ».

ومالنا نذهب بعيداً ، ونحن نعلم أن القرآن الكريم اشتمل على بعض آيات نسخت تلاوتها وبهذا النسخ سقطت من القرآن الكريم ، ولا أدل على ذلك من قول صاحب مفتاح السعادة : « النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب : ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، وما نسخ حكمه دون تلاوته وهذا كثير في القرآن ، وما نسخ تلاوته دون حكمه ، وأمثلته كثيرة »(١).

وناسخ القرآن ومنسوخة علم « أفرده بالتصنيف خلائق ، منهم أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو داود السجستاني ، وأبو جعفر النحاس ، وابن الأنباري ، ومكّي ، وابن العربي وآخرون . قالت الأئمة : لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله تعالى إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ ، وقد قال عليّ لقاصّ : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، قال : هلكت وأهلكت »(٢).

من هذا الذي قدمنا نستطيع القول بأن قراءة أبيّ هذه لعلها من القراءات المنسوخة تلاوة بدليل عدم كتابتها في المصحف الإمام ، وأبيّ عضو في لجنة توثيقه في عهد عثمان رضي الله عنه كما سنرى فيما بعد .

٣ ـ مصحف ابن مسعود

ابن مسعود علم من أعلام القرآن تربّى في بيت النبوة ، « وكان يتولى فراش النبي ﷺ ووساده وسواكه ، ونعله وطهوره »(٣)، ورجل هذا شأنه مع النبي عليه السلام لا بد أن يكون قريب الصلة منه يعرف كثيراً من أسرار النبوة وحقائق الرسالة ، ولهذا قال الرواة . « وكان النبي عليه السلام يطلع ابن مسعود على أسراره ونجواه »(٤).

وفي مجال قراءاته ، قال عنه ﷺ « من أحب أن يقرأ القرآن غضّاً كما أنزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد »(٥).

---

(١) مفتاح السعادة ٢ / ٤٤٥ .
(٢) المرجع نفسه ٢٤٣ .
(٣) معرفة القراء الكبار ١ / ٣٤ .
(٤) المرجع نفسه والصفحة .
(٥) معرفة القراء الكبار ١/ ٣٤ .

وتحدث ابن مسعود عن نفسه في مجال القراءة فقال : « حفظت منْ في رسول الله ﷺ سبعين سورة »[١].

وابن مسعود في مجال القراءات السبع كسابقَيْه : علي كرم الله وجهه ، وأبيّ بن كعب فثلاثة من القراء السبعة ينتهي سندهم إلى ابن مسعود رضي الله عنه ، وهؤلاء هم :

١ ـ حمزة :

أخذ القراءة عن سليمان الأعمش ، وكان الأعمش يجوّد حرف ابن مسعود[٢].

٢ ـ عاصم :

أخذ القراءة عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود[٣].

٣ ـ الكسائي :

أخذ القراءة عن حمزة بإسناده السابق أربع مرات ، وعليه اعتماده[٤].

مصحف ابن مسعود وقراءته :

من المعروف تاريخيًا أن ابن مسعود كان له مصحف خاص قبل أن يحرق عثمان رضي الله عنه المصاحف .

ومن الطبيعي أن يكون لابن مسعود مصحف كما كان لعليّ وأبيّ وغيرهما .

ولا عجب في ذلك فابن مسعود كما قلنا توطّدت علاقته بالرسّول عليه السلام حتى كأنه من أهل البيت ـ فقد قال أبو موسى : « ما كنت أحسب ابن مسعود وأمه إلاّ من أهل البيت لكثرة دخولهم وخروجهم »[٥].

ولمكانة ابن مسعود في قراءة القرآن كان مرجعاً قرآنيًا كبيراً في نظر الصحابة والتابعين ، فقد قرأ عليه « الأسود ، وتميم بن حذلم ، والحارث بن قيس ، وزرّ بن حبيش ، وعبيد بن قيس ، وعبيد بن نضلة ، وعلقمة ، وعبيدة السلماني ، وعمرو بن شرحبيل ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو عمرو الشيباني ، وزيد بن وهب ، ومسروق »[٦].

---

(١) المرجع نفسه والصفحة .
(٢) النشر ١ / ٢٦١ ، ٢٦٢ .
(٣) النشر ١ / ٣٤٧ ، ٣٤٨ .
(٤) النشر ١ / ٣٣٥ .
(٥) معرفة القراء الكبار ١ / ٣٤ .
(٦) غاية النهاية ١ / ٤٥٨ .

ولا شك أن هذا العدد من القراء يفسّر لنا منزلة ابن مسعود في ميدان القراءة والتوثيق . وإمكانية اتّصاله بالنبي عليه السلام ، وكثرة ملازمته له تؤكد لنا هذه المنزلة .

وقد تحدث ابن مسعود عن نفسه في هذا المجال فقال : « حفظت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة ». كما سبق أن ذكرنا .

وكان لحفظ ابن مسعود القرآن ميزة تتضح فيها الرؤ ية والأناة ، والتريّث واليقظة فقد قال : « كنا نتعلّم من النبي ﷺ عشر آيات فما نتعلم العشر التي بعدهن حتى نتعلّم ما أنزل الله في هذه العشر من العمل »[١].

لهذا فإن ابن مسعود يمثّل القرآن ، والعلم معاً ، ومن هنا صح أن يقول عن نفسه : « والله الذي لا إله غيره لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تُبلِّغنيه الإبل لرحلت إليه »[٢].

ومع هذا العلم بالقرآن فقد نسبوا إلى مصحف ابن مسعود أنه ينقص أم الكتاب والمعوّذتين « وكان عدم وجود هذه السور في مصحف ابن مسعود يشير إلى أنها ليست من القرآن كما يقول بعض الجاحدين المعاندين ، وقد سفه هذا الرأي الإمام ابن قتيبة في كتابه : « تأويل مشكل القرآن » فقال : « عبد الله ذهب فيما يرى أهل النّظر إلى أن المعوذتين كانتا كالعوذة والرقية وغيرهما ، وكان يرى رسول الله ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين وغيرهما كما كان يعوذ بأعوذ بكلمات الله التامة ، وغير ذلك، فظن أنهما ليستا من القرآن ، وأقام على ظنه ، ومخالفة الصحابة جميعاً . . . . . . وأما فاتحة الكتاب فإني أشك فيما روى عن عبد الله من تركه إثباتها في مصحفه ، فإن كان هذا محفوظاً فليس يجوز لمسلم أن يظن به الجهل بأنها من القرآن ، وكيف يظن به ذلك وهو من أشد الصحابة عناية بالقرآن ، وأحد السّتة الذين انتهى إليهم العلم . . . . وهو مع هذا متقدّم في الإسلام بذريّ لم يزل يسمع رسول الله ﷺ يؤم بها . . . وهي السبع المثاني ، وأم الكتاب . . . ولكنه ذهب فيما يظن أهل النظر إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان ، والزيادة والنقصان ، ورأى ذلك لا يجوز على سورة الحمد لقصرها، ولأنها تثنّى في كل صلاة وكل ركعة ، ولأنه لا يجوز لأحد من المسلمين ترك تعلمها وحفظها كما يجوز ترك تعلم غيرها وحفظه إذ كانت لا صلاة إلا بها .

فلما أمن عليها العلة التي من أجلها كتب المصحف ترك كتابتها وهو يعلم أنها من القرآن »[٣]

من أجل ذلك يمكن أن نقول : إن مصحف ابن مسعود لا يختلف في جوهره وفي لفظه وفي ترتيبه عن مصحف أبى بكر كما لا يختلف عن المصحف الإمام الذي كتب في عهد عثمان رضي الله عنه .

---

(١) غاية النهاية ١ / ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

(٢) المرجع نفسه / ٤٥٩ .

(٣) تأويل مشكل القرآن / ٣٤ ، ٣٥ .

بيد أن هناك قراءات نسبت إلى ابن مسعود تختلف عن رسم المصحف الذي أقرته الجماعة في عهد عثمان ، وهذه القراءات كما قلنا تحمل طابع التفسير ، وليست قراءات من صلب القرآن . وإليكم نماذج منها :

١ ـ قرأ ابن مسعود : « فالصوالح قوانت حوافظ للغيب بما حفظ الله ، فأصلحوا إليهن » . وقراءة العامة : « فالصَّالحات قانتاتٌ حافظاتٌ للغيب بما حفظ الله »(١). بدون « فأصلحوا إليهن » .

قال أبو حيان : « وينبغي حملها على التفسير ، لأنها مخالفة لسواد الإمام ، وفيها زيادة ، وقد صحّ عنه بالنقل الذي لا شك فيه أنه قرأ وأقرأ على رسم السواد ، فلذلك ينبغي أن تحمل هذه القراءة على التفسير »(٢).

٢ ـ في مصحف ابن مسعود : « ووصّى ربك » من التوصية . وقراءة العامة : « وقضى ربك »(٣). قال أبو حيان : « وينبغي أن يحمل ذلك على التفسير ، لأنها قراءة مخالفة لسواد المصحف ، والمتواتر هو : « وقضى » وهو المستفيض عن ابن مسعود ، وابن عباس وغيرهم في أسانيد القراء السبعة »(٤).

٣ ـ قرأ ابن مسعود : « فأذاقها الله الخوف والجوع » . وقراءة العامة : « لباس الجوع والخوف »(٥).

قال أبو حيان : « والذي أقوله : إن هذا تفسير المعنى لا قراءة ، لأن المنقول عنه مستفيضٌ مثل ما في سواد المصحف »(٦).

٤ ـ قرأ ابن مسعود : « يخرج الدهن » . وقراءة العامة : « تنبت بالدهن »(٧).

قال أبو حيان : « محمول على التفسير لمخالفته سواد المصحف المجمع عليه ، ولأن الرواية الثابتة عنهما كقراءة الجمهور »(٨).

٥ ـ قرأ ابن مسعود : « بيت من ذهب » . وقراءة العامة : « بيت من زخرف »(٩).

٦ ـ قرأ ابن مسعود : « وإذ قال ربكم » . وقراءة العامة : « وإذ تأذّن ربكم »(١٠).

٧ ـ قرأ ابن مسعود : « لا يظلم مثقال نملة . وقراءة العامة : « لا يظلم مثقال ذرة »(١١).

٨ ـ قرأ ابن مسعود : « عليها صوافن » . والعامة : عليها صواف »(١٢).

---

(١) النساء / ٣٤ .
(٢) البحر ٢ / ٢٤٠ .
(٣) الإسراء / ٢٣ .
(٤) البحر ٦ / ٢٥ .
(٥) النحل / ١١٢ .
(٦) البحر ٥ / ٥٤٣ .
(٧) المؤمنون / ٢٠ .
(٨) البحر ٦ / ٤٠١ .
(٩) الإسراء / ٩٣ . وانظر البحر ٦ / ٨٠ .
(١٠) إبراهيم / ٧ وانظر البحر ٥ / ٤٠٧ .
(١١) النساء / ٤٠ وانظر البحر ٣ / ٢٥١ .
(١٢) الحج / ٣٦ وانظر المحتسب ٢ / ٨١ .

٩ ـ قرأ ابن مسعود : « ولا تكلّمون كان فريق ». والعامة : « ولا تكلمون إنّه كان فريق »[١].

١٠ ـ قرأ ابن مسعود : « وبحر يمده ». وقراءة العامة : « والبحر يمده »[٢] .

وهناك قراءات متفقة مع رسم المصحف ، ولكنها ضعيفة في الرواية لم تصل إلى درجة التواتر . من هذه القراءات :

١ ـ قرأ ابن مسعود : « وكان عبد الله وجيهاً ». وقراءة العامة : « وكان عند الله وجيهاً »[٣] .

٢ ـ قرأ ابن مسعود : « ولو جئنا بمثله مداداً ». وقراءة العامة : « ولو جئنا بمثله مددا »[٤] .

٣ ـ قرأ ابن مسعود : « من الكبر عَتِيًّا بفتح العين . وقراءة العامة بكسر العين عِتِيًّا »[٥] .

٤ ـ قرأ ابن مسعود : وأن يَحْشُرَ الناسَ ضُحىً ». وقراءة العامة : « وأن يُحْشَرَ الناسُ ضُحىً »[٦].

٥ ـ قرأ ابن مسعود : « من كل جَدَث ينسلون » . وقراءة العامة : « من كل حَدَبٍ ينسلون »[٧].

هذا وقد بلغت القراءات الشاذة المنسوبة إلى ابن مسعود في ضوء كتاب : « المحتسب » أربعا وسبعين قراءة[٨] .

وبمقارنة قراءة ابن مسعود بقراءة عليّ وأبيّ في باب الشواذ نجد أن قراءة ابن مسعود أكثر عدداً من قراءتي صاحبيه .

هذا ، وهناك مصاحف أخرى منسوبة إلى مجموعة من الصحابة ذكرها السجستاني في المصاحف نذكر منهم : عبد الله بن عباس ـ عمر بن الخطاب ـ حفصة بنت عمر ـ عائشة بنت أبي بكر ـ أم سلمة ـ عبد الله ابن عمرو ـ عبد الله بن الزبير[٩].

والحقيقة أن هذه المصاحف ليست إلا صُحفاً أو أجزاء من القرآن الكريم كتبها كل واحد منهم بناء على ما سمع من الرسول عليه السلام ، وأطلق عليها اسم المصاحف مجازاً لأن جمع المصحف لم يكن لأحد من الصحابة قبل أبي بكر وإلا لما تكلف عناء جمعه على المنهج الصارم الذي تحدثنا عنه . وجميع

---

(١) المؤمنون / ١٠٨ ، ١٠٩ وانظر المحتسب ٢ / ٩٨ .
(٢) لقمان / ٢٧ وانظر المحتسب ٢ / ١٦٩ .
(٣) الأحزاب / ٦٩ . وانظر المحتسب ٢ / ١٨٥ .
(٤) الكهف / ١٠٩ وانظر المحتسب ٢ / ٣٥ .
(٥) مريم / ٨ وانظر المحتسب ٢ / ٣٩ .
(٦) طه / ٥٩ وانظر المحتسب ٢ / ٥٤ .
(٧) الأنبياء / ٩٦ . وانظر المحتسب ٢ / ٦٦ .
(٨) انظر فهرس المحتسب ٢ / ٥١٦ .
(٩) انظر المصاحف ٥٥ ـ ٨٨ .

هذه الصحف أو هذه الأجزاء كتبها كل منهم على ما سمع من ناحية ، وعلى التفسير المذكور في الأحرف السبعة من ناحية أخرى .وأما المصاحف التي خصصناها بمزيد من البحث ، فقد كانت غير كاملة أيضاً ، وإن كانت تشتمل على أكبر قدر من الآيات لم يصل عددها إلى عدد الآيات التي جمعت في مصحف أبي بكر ، فمصحف عليّ على فرض أنه نجا من حريق عثمان فقد وجد ناقصاً كما حكى ابن النديم في الفهرست حيث يقول : « قال ابن المنادي : حدثني الحسن بن العباس . . . . . . عن عبد خير عن عليّ عليه السلام أنه رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي ﷺ فأقسم أنه لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن فهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه »(١).

وهذه الرواية لا نطمئنُّ إليها لاشتمالها على بعض الغرائب :

أولاً : لا يمكن أن يكون في طاقة البشر من يكتب القرآن الذي بين أيدينا في ثلاثة أيام . هذا أمر لا يطمئن إليه العقل حتى ولو كان الكاتب أمير المؤمنين عليّ .

ثانياً : إملاء القرآن من حفظ القلب فقط من دون أن يكون هناك مجموعة تراجع هذا المحفوظ ، وتُعين عليًّا ـ كرم الله وجهه ـ في هذا الإملاء عمل غير متكامل ، قد يتسرب إليه النقص أو الزيادة بسبب النسيان وهو طبيعة من طبائع البشر .

وما لنا نذهب بعيداً ، وهذا المصحف كما يروي سيرته ابن النديم لم ير كاملاً وهذا أمر عجيب ، وقبل أن نعلق عليه نترك ابن النديم يكمل روايته بالنسبة لمصحف عليّ كرم الله وجهه ، قال : « وكان المصحف عند أهل جعفر ، ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله مصحفاً قد سقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب يتوارثه بنو حسن على مرّ الزمان »(٢).

وهذا الخبر إن صح ، وهو بشهادة ابن النديم نفسه الذي رأى هذا المصحف رأى العين يدل على ان مصحف عليّ لم يكن كاملاً ، وكيف يتوارثه بنو حسن ، مع أنه بخط أبيهم وهو على هذا النقص إن لم يكن في الأصل ناقصاً .

وأما مصحف ابن مسعود فقد عرفنا أنه سقط منه المعوذتان وأم الكتاب ، وقد عرضنا هذا الموضوع فيما سبق .

وأما مصحف أبيّ فقد تحدث عن عدد آياته ابن النديم فقال : « وجميع آي القرآن في قول أبيّ بن كعب ستة آلاف آية ومائتان وعشر آيات »(٣) مع أن ابن عباس يذكر أن آيات القرآن : « ستة آلاف آية وستمائة آية ، وست عشرة آية »(٤).

---

(١) انظر الفهرست / ٢٨ .
(٢) الفهرست / ٢٨ .
(٣) المرجع نفسه / ٣٠ .
(٤) مفتاح السعادة ٢ / ٣٩٥ .

وفي المصحف الذي بين أيدينا ، والذي تم طبعه بمطبعة حكومة الكويت الطبعة الثالثة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م ينص مُعَرِّفُه فيقول : « واتبعت في عد آياته طريقة الكوفيين على حسب ما ورد في كتاب « ناظمة الزهر » للإمام الشاطبي وشرحها لأبي عيد رضوان المخللاتي ، وكتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي ، وكتاب « تحقيق البيان » للأستاذ الشيخ محمد المتولي شيخ القراء بالديار المصرية سابقاً ، وآي القرآن على طريقتهم ٦٢٣٦ آية[١].

والذي حملنا على هذا المقارنة هو أن نثبت أن مصحف أبيّ أيضاً لم يكن كاملاً ، وإنما كمل القرآن بعد جمع أبي بكر له كما تحدثنا سابقاً.

« ومن أجل تعدد المصاحف إلى جانب مصحف أبي بكر ، وانتشار القراء في الأمصار تعددت القراءات ، وثار الجدل ، واحتدم النزاع ، واتسعت الفروق بين القراءات ، وأطلت الفتنة برأسها على كتاب هذه الأمة ، فهيأ الله الخليفة الورع عثمان بن عفان ليقضي على كل فتنة تحاول أن تمسّ جلال القرآن الكريم ، وبتوفيق الله وإلهامه قام عثمان رضي الله عنه بالمرحلة الثالثة لتوثيق نص القرآن الكريم »[٢] وها نحن أولاء نطرق باب الحديث فيها .

المرحلة الثالثة

توثيقه في عهد عثمان رضي الله عنه

لما فرغ زيد بن ثابت من كتابة المصحف في عهد أبي بكر سلّمه إلى أبي بكر فبقى عنده إلى أن حضرته الوفاة، فسلمه بدوره إلى عمر رضي الله عنه، فأمسكه عمر طوال حياته ، فلما انتقل إلى ربه تسلّمت هذا المصحف بنته حفصة رضي الله عنها .

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو : لماذا سلّم أبو بكر المصحف إلى عمر ، ولم يسلم عمر المصحف إلى عثمان ؟

والإجابة عن هذا السؤال واضحة ، لأن عمر نص أبو بكر على خلافته، أما عثمان رضي الله عنه ، فإن عمر لم ينص على خلافته ، وإنما تركها لأهل الشورى ، ومن ثم كانت حفصة أم المؤمنين ، وبنت عمر أولى بالاحتفاظ بهذا المصحف حتى يبتّ في أمر الخلافة .

السبب في إعادة كتابة المصحف في عهد عثمان :

في عهد عثمان رضي الله عنه اتسعت الفتوح ، وكثر الداخلون في دين الله ، وتعددت القراءات ،

---

(١) انظر : المصحف ص (جـ) في التعريف .

(٢) انظر القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية / ١٠ .

فهذا يقول قراءتي قراءة ابن مسعود ، وآخر يقول : قراءتي بقراءة سالم مولى حذيفة كما أشارت إليه رواية مصعب بن سعد التي تقول : « لما كثر اختلاف الناس في القرآن قالوا : قراءة ابن مسعود ، وقراءة سالم مولى حذيفة »[1] .

وقد ساعد على هذا الاختلاف وجود مصاحف أشرنا إليها آنفاً بجانب مصحف أبي بكر ولا شك أن تعدد القراءات ، وكثرة الاختلافات تؤدي إلى الاضطراب والفتن بين المسلمين .

لهذه الأسباب قام عثمان بحركته التاريخية لتوحيد المسلمين على مصحف واحد حتى لا تطل رأس الفتنة ،وحتى يجتذ الخلاف من جذوره ،وحتى تبقى للمسلمين هيبتهم وقوتهم ، وتماسكهم بكتاب ربهم من دون خلاف .

ولنترك البخاري في كتاب « فضائل القرآن » ليكشف لنا بسنده المتصل سبب هذا الخلاف الذي أوشك أن يحدث بلبلة بين المسلمين إزاء تعدد مصاحف القرآن الكريم ، وتعدد قراءاته . قال : « عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية ، وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى .فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردّها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمرزيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة :

إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف ممّا نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق »[2].

في ضوء هذا النص يتضح لنا أن حركة عثمان في المصاحف امتداد لحركة أبي بكر غير أن الجديد في حركة عثمان أنه وحّد المسلمين على هذا المصحف الذي قام بكتابته ، وجمع مصاحف الصحابة وأحرقها أو محاها على اختلاف في الرواية على حين أن هذه المصاحف كانت في عهد أبي بكر مصونة لا تمس .

والسؤال الذي يقال هنا : لمَ لم يفعل أبو بكر وعمر كما فعل عثمان ليوحد الناس على مصحف أبي بكر الذي جمع في عهده بعد جهود جبارة بذلت فيه ؟.

والواقع أن للإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن ندرك الحقائق التاريخية التالية :

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن / ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن ٣ / ١٦١ .

١ ـ كبار الصحابة في عهدي أبي بكر وعمر لم يغادروا الحرمين ، فلم يتفرقوا في الأمصار كما تفرقوا في عهد عثمان ، وكما نعلم أن عمر بالغ في تحديد إقامة هؤلاء الكبار حتى لا يفتتن الناس بهم ، وبسبب وجودهم في مقر الخلافة كانوا المرجع لكل خلاف في قراءات القرآن ، لأنهم سمعوا من الرسول عليه السلام ، وتلقوا منه القرآن ففتنة الخلاف في عهد الخليفتين لم تعلن عن نفسها ، ومن ثم لا ضرورة تقتضي توحيد الناس على مصحف واحد .

٢ ـ القرآن الكريم ، نزل معظمه بلغة قريش ، فلو فرضت هذه اللغة على المسلمين ، وهم يمثلون قبائل عديدة غير قرشية لأدى ذلك إلى إقامة الحواجز بين هذه القبائل وبين قراءة القرآن ، ومن ثم كان الترخيص المؤقت لأن تقرأ كل قبيلة بلغتها حتى تمرن على قراءة القرآن بلهجته القرشية الفصيحة ـ وهذا ما سنتحدث عنه فيما بعد ـ إن شاء الله ـ عند تعرضنا لنزول القرآن على سبعة أحرف .

ولما مرنت الألسنة ، وتدرّبت على قراءة القرآن في لغته القرشية التي ارتضاها العرب جميعاً لتكون اللغة النموذجية للغاتهم المختلفة انتهى هذا الترخيص المؤقت بما فعل عثمان حينما وحد لغة القرآن .

٣ ـ ولحرص المسلمين على القرآن الكريم رويت هذه القراءات التي كانت تقرأ للترخيص ، وتناقلها الخلف عن السلف على أنها قراءات ، ومن هنا تعددت الروايات وكثرت ، وأصبحت القراءات معرضاً ضخماً للهجات العرب المختلفة مع أنها في الواقع قراءات نتجت عن ضرورة ملحة وهي تيسير القرآن لمن صعبت عليه لهجة قريش ، ومن ثم كان عمل عثمان القضاء على هذه القراءات اللهجية بما قام به من إحراق المصاحف المتعددة التي أدت برواياتها وانتشار قراءتها إلى الفتنة التي تحدث عنها البخاري . وكان عملاً رائعاً من عثمان أن يوفق للعمل على أن يلتف المسلمون حول مصحف واحد منعاً لهذه الشبهات ، وصيانة لكتاب الله من التحريفات .

وحول هذا المعنى قال ابن قتيبة : « فكان من تيسيره أن أمره بأن يقرىء كل قوم بلغتهم ، وما جرت عليه عادتهم ، فالهذلي يقرأ « عتّى حين »[1] يريد : « حتى حين » لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها . والأسدى يقرأ : « تِعْلمون » و « تِعْلم » و « تِسْود وجوه »[2] و « ألم إعْهد إليكم »[3]. والتميمي يهمز ، والقرشي لا يهمز ، والآخر يقرأ : « وإذا قِيل لهم »[4] و « غِيض الماء »[5] بإشمام الضم مع الكسر ،

---

(١) يوسف ٣٥ ، المؤمنون / ٢٥ ، ٥٤ ، الصافات / ١٧٤ ، ١٧٨ ، الذاريات / ٤٣ .
(٢) آل عمران / ١٠٦ .
(٣) يس / ٦٠ .
(٤) البقرة / ١١ وقد تكررت كثيراً .
(٥) هود / ٤٤ .

و« هذه بضاعتنا رُدّت إلينا »[١] بإشمام الكسر مع الضم و « مالك لا تأمَنّا »[٢] بإشمام الضم مع الإدغام وهذا ما لا يطوع به كل لسان .

ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته ، وما جري عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتد ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه ، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسان ، وقطع للعادة ، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات ، ومتصرَّفاً في الحركات »[٣] .

٤ ـ على أن بعض هذه القراءات العديدة ليس قائماً على أساس اختلاف اللهجات ، وإنما يرجع أمرها إلى أن هذه القراءات نسخت ولم يكن بعض الصحابة على علم بها ، وتناقل الرواة عن هذا البعض هذه القراءات مع أنها في واقع الأمر منسوخة تلاوتها ، ونسخ التلاوة يبعدها عن أن تكون من القرآن ، ويمثلون لهذا النوع من القراءات بحديث عائشة عنها وهي قراءات منسوخة حكماً وتلاوة قال السيّوطي : « قالت عائشة كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخ بخمس معلومات فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن » رواه الشيخان ، وقد تكلموا في قولها : « وهن مما يقرأ من القرآن » فإن ظاهره بقاء التلاوة وليس كذلك . وأجيب بأن المراد قارب الوفاة ، أو أنّ التلاوة نسخت أيضاً ـ ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ فتوفى وبعض الناس يقرؤها[٤] .

ويؤيد هذا الاتجاه أيضاً ما سبق أن ذكرناه من معارضة كاتبي المصحف في عهد أبي بكر من قبول آية الرجم التي كان يحفظها عمر ـ وهو الشاهد الوحيد لها ـ لأنها لم تتواتر نتيجة نسخها تلاوة ، ولم يعرف عمر ذلك .

٥ ـ لم يحدثنا الرواة في عهد الخليفتين أن الخلافات بينهم في القراءات وصلت إلى حدّ التنافر ، بين المسلمين ، وتكفير بعضهم بعضاً كما حدث في خلافة عثمان حينما اتسعت الفتوح ، وتعددت الأمصار. وخير مثال لهذه الخلافات ما حدث به يزيد بن معاوية قال : إني لفي المسجد زمن الوليد بن عقبة في حلقة فيها حذيفة . . . إذ هتف هاتف : من كان يقرأ على قراءة أبي موسى فليأت الزاوية التي عند أبواب كندة ، ومن كان يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود فليأت هذه الزاوية التي عند دار عبد الله . واختلفا في آية من سورة البقرة ، قرأ هذا « وأتموا الحج والعمرة للبيت » وقرأ هذا : « وأتموا الحج والعمرة لله »[٥]، فغضب حذيفة واحمرت عيناه[٦]. ولعل هذه كانت الشرارة التي ألهبت حذيفة بن اليمان ليذهب إلى عثمان يطلب منه تدارك هذه الأمور الخطيرة التي تواجه نص القرآن الكريم .

---

(١) يوسف / ٦٥ .
(٢) يوسف / ١١ .
(٣) تأويل مشكل القرآن / ٣٠ .
(٤) الإتقان / ٢ / ٢٢ .
(٥) البقرة / ١٩٦ .
(٦) المصاحف ١١ ، ١٢ وانظر لطائف الإشارات / ٥٨ .

ولعلنا بعد هذا الذي قدمنا نكون قد وضعنا النقط على الحروف في الإجابة عن السؤال السابق .

إن عمل عثمان هذا لا يقل عن عمل أبي بكر ، فكلا العملين دعت إليه الحاجة ،واقتضته الضرورة ، ولولاهما لتفرق القرآن إلى مصاحف عديدة كما تفرق الإنجيل إلى أناجيل شتى ، وصدق الله العظيم : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1].

اللغة التي كتب بها القرآن في عهد عثمان :

من البديهي أن نقول : إن هذه اللغة هي اللغة القرشية التي كتب بها المصحف أيضاً في عهد أبي بكر كما قدمنا ، وذلك لأن القرآن الكريم « نزل بلسان قريش ، ورسول الله ﷺ أفصح العرب وهو من قريش ، وقريش من ولد إسماعيل ، وولد إسماعيل أفصح من اليمن الذين هم من ولد يعرب بن قحطان »[2].

وقد قال عثمان رضي الله عنه للرهط القرشيين الذين كتبوا المصحف : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا »[3].

قال الزهري : « فاختلفوا في التابوت ، فقال زيد : هو التابوه ، وقال النفر القرشيون هو : التابوت فرفع الأمر إلى عثمان فقال : اكتبوه بلسان قريش فإن القرآن نزل بلسانهم »[4].

وقد وصلت الدقة الغاية التي ليس بعدها غاية في تسجيل النص القرآني على عهد عثمان ، فقد روى الحسين بن فارس عن أبي الحسن علي بن إبراهيم القطان ...... عن هانىء قال : « كنت عند عثمان رضي الله عنه ، وهم يعرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلى أبيّ بن كعب فيها : « لم يتسنّ »[5] و « فأمهل الكافرين »[6] ، و « لا تبديل للخلق »[7] قال : فدعا بالرواة فمحا إحدى اللامين ، وكتب : « لخلق الله »، ومحا : « فأمهل » وكتب : « فمهّل » وكتب : « لم يتسنه » ألحق فيها هاء »[8].

عدد المصاحف التي أرسلها عثمان إلى الأمصار :

من نسخة حفصة التي أحضرها ، ونسخها بكتابة جديدة على أيدي ثقات كاتبين ، بعد تمحيص دقيق ، وتوثيق متكامل كتبت عدة مصاحف « فوجه بمصحف إلى البصرة ، ومصحف إلى الكوفة ومصحف

---

(١) الحجر /٩ .
(٢) الزينة ١ / ١٤٦ .
(٣) الإتقان ١ / ٥٩ .
(٤) الزينة ١ / ١٤٦ .
(٥) البقرة / ٢٥٩ .
(٦) الطارق / ١٧ .
(٧) الروم / ٣٠ .
(٨) الصاحبي / ١٣ .

إلى الشام وترك مصحفاً بالمدينة ، وأمسك لنفسه مصحفاً (وهو) الذي يقال له الإمام ، ووجه بمصحف إلى مكة ، وبمصحف إلى اليمن وبمصحف إلى البحرين .

« وأجمعت الأمة المعصومة من الخطأ على ما تضمنته هذه المصاحف وترك ما خالفها من زيادة ونقص ، وإبدال كلمة بأخرى مما كان مأذوناً فيه توسعة عليهم ، ولم يثبت عندهم ثبوتاً مستفيضاً أنه من القرآن »[١].

ومعنى هذا أن عثمان استوعب بهذا الإرسال للمصاحف معظم الأمصار الإسلامية التي فتحت باسم الإسلام ، وبذلك العمل توّج عثمان خلافته بتوثيق النص القرآني حيث جعل مصحفه هو مصحف المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم الدين ، « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ».

ولا يفوتنا أن نذكر أن المصحف العثماني هوالمصحف الشرعي الوحيد ولا نعترف بغيره من المصاحف المنسوبة إلى كبار الصحابة والتابعين ، لأنهم جميعاً تخلوا عن مصاحفهم ، والتزموا بمصحف عثمان .

على أن عثمان رضي الله عنه لم يأمن هذا الالتزام من الصحابة ، فقد يتناقل الناس هذه المصاحف بعد حياتهم ، وليأمن شر هذه الفتنة قام بعمل حكيم وهو تحريق المصاحف الأخرى أو حرقها ، وهذا ما نخصّه بالبحث في النقطة التالية :

تحريق مصاحف الصحابة :

من أجل سد باب الفتنة قام عثمان بجمع مصاحف الصحابة ، وأمر بإحراقها . ويعلل شهاب الدين القسطلاني هذا الإحراق بقوله : « وإنما أمر بإحراق ما سوى المصحف الذي استكتبه والمصاحف التي نقلت منه ،والصحف التي كانت نقلت منه ، والصحف التي كانت عند حفصة خشية أن يقع لأحد منها توهّم أن فيها ما يخالف المصحف الذي استقر عليه الأمر ، وكانت كتابتهم هذه المصاحف بإجماع منهم على اللفظ الذي استقرّ في العرضة الأخيرة التي قرأ بها رسول الله ﷺ على جبريل عام قُبض دون ما أذن فيه ، وعلى ما صح مستفاضاً عنه عليه السلام دون غيره قطعاً لمادة الخلاف ، فصار ما يخالف خط المصحف في حكم المنسوخ والمرفوع كسائر ما نسخ ورفع ، فليس لأحد أن يتعدى الرسم »[٢].

وإحراق عثمان لمصاحف كبار الصحابة كابن مسعود قد وجهت إليه موجات من النقد . وحاولت بعض كتب التاريخ أن تجعل من ابن مسعود مصدراً لهذا النقد ، فقد قال ابن شهاب : « أخبرني عبد الله بن عبد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود قال : « يا معشر المسلمين أعزل عن كتابة المصاحف ، ويولّاها رجل والله ، لقد أسلمت ، وإنه لفي صلب رجل كافر - يريد : زيد بن ثابت . . . قال ابن شهاب فبلغني أنه كره

---

(١) النشر ١ / ٧ .
(٢) لطائف الإشارات : ٦٤ .

ذلك من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب رسول الله ﷺ »[١].

والواقع أن حديث ابن مسعود إن صحّ لا يدل على أنه كان ثائراً على عمل عثمان في توحيد المصحف، وإحراق ما عداه من المصاحف، لأن ابن مسعود كان يرى أن عمل عثمان خطوة ضرورية لتوثيق النص القرآني. وهو أخطر قرار اتخذ في عهده، فكان يتمنى أن يسهم في هذه الحركة وأن يحظى بالاشتراك في شرف كتابة المصحف مع زيد لأنه رجل قرآن بشهادة الرسول عليه السلام نفسه في بعض أحاديث سبق ذكرها، فهذه الرواية إذن لا تدل على عدم رضاه بما فعل عثمان.

ولكن هناك رواية أخرى تنسب إلى ابن مسعود قوله. « لو تملكت كما ملكوا لصنعت بمصحفهم مثل ما فعلوا »[٢].

ولا شك أن هذه الرواية غير مسلم بها لأن ابن مسعود الذي فقه الاسلام وتعلم القرآن، وسمعه من فم الرسول عليه السلام لا يستطيع أن يخرق إجماع المسلمين فيقول هذا القول.

أكبر الظن أنها رواية مدسوسة، فما حرق عثمان المصاحف إلا برأي الصحابة، وإجماعهم. يدل على ذلك ما رواه مصعب بن سعد قال: « لما كثر اختلاف الناس في القرآن قالوا: قراءة ابن مسعود، وقراءة سالم مولى حذيفة، قال فجمع أصحابَ محمد ﷺ عثمانُ بن عفان فقال: إني رأيت أن أكتب مصاحف على حرف زيد بن ثابت، ثم أبعث بها إلى الأمصار، قالوا: نعم ما رأيت »[٣].

فمن هذا النص نتبين أن عمل عثمان في جمع المصحف، وإحراق المصاحف الأخرى باركه الصحابة، ووافقوا عليه.

لأجل هذا نقول: إن هذه الرواية مدسوسة لأنها متناقضة مع روايات أخرى تدل على رضاء عبد الله بن مسعود بما فعل عثمان، فقد روى « عن عثمان بن حسان العامري عن فلخلة الجعفي قال: فزعت فيمن فزع إلى عبد الله في المصاحف، فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنا لم نأتك زائرين، ولكن جئنا حين راعنا هذا الخبر فقال: إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحْرف أو حروف »[٤].

وما لنا نذهب بعيداً، وهذا عليّ كرم الله وجهه يشيد بعمل عثمان، ويبين أنه ما فعل ذلك إلا حفاظاً على القرآن، وصيانة لكتاب الله، يقول ـ كرم الله وجهه ـ: « يا معشر الناس: اتقوا الله عز وجل وإياكم

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن / ٢٠.
(٢) الطراز ٣ / ٤٦٠.
(٣) مقدمتان في علوم القرآن / ٤٤ ـ ٤٥.
(٤) المصاحف / ١٨.

والغلو في عثمان ، وقولكم حراق المصاحف فوالله ما حرقها إلا عن كلامنا أصحاب محمد ﷺ »(١).

على أن عثمان رضي الله عنه كان يعرف لابن مسعود منزلته ، فهو لم يعزله عن كتابة المصحف لعيب اتهم به ، أو تقصير نسب إليه ، ولكن كما قال القسطلاني : « والعذر لعثمان رضي الله عنه في ذلك أنه فعله بالمدينة وعبد الله بالكوفة ولم يؤخر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر . وأيضاً فإن عثمان إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر وكاتبها هو زيد بن ثابت لكونه كاتب الوحي ، فكانت له أولوية ليست لغيره »(٢).

ولا نحب أن ننهي الحديث عن هذه النقطة قبل أن نشير إلى أنّ كثيراً من قراءات هذه المصاحف المنسوبة إلى كبار الصحابة قد تناقلته الرواة وسجلته كتب التفسير ، وعرضته كتب النحو واللغة لأنه في باب الاستدلال اللغوي والنحوي مصدر كبير من مصادر العربية ، وإن كانت هذه القراءات في مجال التواتر ضعيفة السند . لكن الذي لا نطمئن إليه أن تبقى بعض المصاحف بعد هذا الإحراق ، لأن عثمان أجهز عليها جميعاً ، حتى مصحف حفصة رضي الله عنها ناله ما نال هذه المصاحف . ومن المعروف أن عثمان رضي الله عنه استعار هذا المصحف الذي عند حفصة ليكتب في ضوئه مصاحفه ووعدها بردّه إليها بعد الانتهاء من النسخ ، وحقق ما وعد به حيث رد إليها المصحف ، ولم يحرقه ، لأنه مصحف مأمون كتب بيد زيد ، ووثقه أصحاب رسول الله ، ولكن عمل عثمان في مصحفه هو كتابته على حرف واحد بلهجة قريش ، وتوحيد الناس عليه ، على حين أن مصحف أبي بكر كان مرجعاً فقط للصحابة حينما يختلفون في قراءاتهم . ومع ذلك فإن مصحف حفصة بعد أن توفيت ، ورجعوا « من دفنها أرسل مروان(٣) بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسل إليه بتلك الصحف ، فأرسل بها إليه فأمر مروان فشققت »(٤).

من أجل هذا نقول : إن المصاحف التي بقيت بعد حرق عثمان لها مصاحف مشكوك فيها ، لأن الأمة أجمعت على مصحف واحد وهو المصحف العثماني . ويردّ محمد بن الهيصم على هؤلاء الذين يدعون أن لأبيّ مصحفاً يخالف مصحف عثمان فيقول : ليس يعرف لأبيّ مصحف يخالف هذا المصحف إلا ما ينسب إليه بخبر الواحد دون الجمع الذي يلزم اليقين وإنما كانت قراءته هذه القراءة التي عليها العامة » . . . إلى أن يقول : « وقد ذكر بعض مشايخنا رحمهم الله أنه رأى مصحفاً منسوباً إلى أبيّ خالف ببعض حروفه حروف هذا المصحف ، لكنا لا نأمن أن يكون ذلك من جهة بعض من يحب الافتخار بالغريب ، فإن هذه بلية قد أضرت بالدين ، وأخلت بمصالح المسلمين » . ثم يقول : « لا يؤمن أحدهم أن يعمد إلى مصحف فيقدم منه سوراً ويؤخر أخرى ، ويحرق ألفاظاً ثم يزعم أنه مصحف عليّ أو مصحف عبد الله ، أو مصحف أبي ، وليس غرض البائس من ذلك إلا أن يحمله إلى بعض الملوك فيقول : إن خزانة مثلك يجب ألّا تخلو من نسخة من كل مصحف ليستخرج من حُطامه شيئاً ، ولا يبالي بما كان من جناية على الدين وأهله »(٥).

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن / ٤٦ .
(٢) لطائف الإشارات / ٦٣ .
(٣) مروان بن الحكم وآل من ولاة عثمان .
(٤) المصاحف / ٢٥ .
(٥) مقدمتان في علوم القرآن / ٤٧ ، ٤٨ .